رحلة
إلى العالم السفلي

بيت اللحيوى ٣

رواية

م.عبد الله عبد المنعم

دار وادي عبقر

للطباعة والنشر والتوزيع

بيت الإبداع.. وموطن العباقرة

wadiabkr.wixsite.com /wadiabkr

wadiabkar@gmail.com

www.facebook / wadiabkar

www.youtube.com / wadiabkr

٠١٥٥٥٥١٧٤٢٦

٠١١٤١٧٢٨٦٢٥

٠١٢٢١٤٨١٨٥٦

٠١٠٩٧١٥٤٣٣٢

٠٨٦٢١٦٤٤٢٨

بطاقة الكتاب

رحلة إلى العالم السفلي

بيت اللحيوي ٣

م. عبد الله عبد المنعم

رواية

رقم الإيداع : ١٣٧٥٥/ ٢٠٢٦

الترقيم الدولي

٨- ٧٢٠٤- ٩٥- ٩٧٧- ٩٧٨

الطبعة الأولى

عدد الصفحات: ٢٠٠

تاريخ الإصدار: يونيو ٢٠٢٦

الإخراج الفني و المراجعة اللغوية

دار وادي عبقر للطباعة و النشر

رئيس مجلس الإدارة

جابر الزهيري

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف فقط، ولا يحق لأى دار نشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب إلا بموافقة كتابية من الكاتب

رحلة إلى العالم السفلي

بيت اللحيوى ٣

رواية

م. عبد الله عبد المنعم

الإهداء

إلى كل من نبت من طين الريف

وتخلق بأخلاق أهله من المروءة والنقاء

إلى كل نبتة خير تصارع كل شر بداخل النفس

إلى كل قارئ أفادته كلماتي وكل ناقد وجهني للصواب

أهدي كل محبتي...

مهندس عبد الله عبد المنعم

ت/ ٠١٢٢٣٣١١٧٥٢

(١)

قصَّ (صالح) على (إبراهيم) ما حدث، وأبلغه أنه مع الفجر سيذهب مع (كاليسا) إلى العالم السفلي ويحرِّران الأولاد، وأوصاه على ابنته، فهو لا يعرف إن كان سيعود، وسيُكتب له النجاة أم لا.

وجد العمدة أن الموضوع دخل في الجد، وأصبح في طور التنفيذ، وأن (صالح) سيذهب إلى العالم السفلي، وهذا عالم اسمه يُغني عنه، ودائمًا ما كان رمزًا للمجهول والظلام واللا عودة، فخاف عليه لدرجة أنه قال له:

- نحتسب الأولاد عند الله، ونعيش من أجل من لدينا من أولاد، فقد لا تعود يا (صالح)، وأشعر أن قلبي مقبوض.

دمعت عينا (صالح) وقال: لا يمكن أن نترك الأولاد، وسوف أُضحّي بنفسي من أجلهم.

عرض (إبراهيم) أن يذهب معه، ويكونا معًا كما كانا دومًا، فكان الرد: واحد يكفي، ويبقى الآخر من أجل العائلة.

فتعانقا وافترقا.

(٢)

عاد (صالح) والدموع تبلل وجنتيه من فراقه لصديق عمره، فليس له في هذه الدنيا سواه، فهو صديقه وأخوه، وهو – كما قال (صالح) – من خرج به من هذه الدنيا، وهو أيضًا أخ لزوجته التي راحت ضحية غدر الجان، ضحية الشر والأشرار الذين لم يكتفوا بما حدث، بل قاموا بخطف أولادهم وفلذات أكبادهم.

فما فائدة الحياة إذن؟ فليكن الموت هو الطريق الوحيد لعودة الأولاد، هذا إن عاد سالمًا من هذه الرحلة؛ فهي رحلته إلى المجهول، إلى وادي الموت، إلى العالم السفلي.

عاد إلى بيته بعد وداع صديقه، ليجد (كاليسا) جالسة بانتظاره، ولمحت دموعه، فربتت على كتفه وقالت:

- هيا لنبدأ رحلتنا.

قال (صالح): هيا، ويحفظنا الله.

مدت يدها له وقالت:

- هات يدك بيدي لنتزوج؛ فنحن لم نتزوج بعد، وشرط اصطحابي لك إلى عالمنا، أن تكون زوجي.

مد يده بسرعة، ووضعها في يدها، فأعطته دبوسًا؛ ليُخرج به نقطة دم من يده، لتختلط بنقطة دم من يدها، فيمتزجا معًا، فهذا هو عهد الزواج، عهد الدم.

قالت له: أنت الآن زوجي، وقد زوجتك نفسي.

فقال (صالح): وأنت زوجتي، وقد قبلت زواجك.

قالت: لنجعل الدخلة بقصر أبي.

ثم أمسكت بيده، وقالت: هيا، بسم الله.

فانشق الحائط عن عالم جديد غريب، فقال (صالح): بسم الله.

فدخلا، ثم غابا في الحائط.

(٣)

وجد (صالح) نفسه في عالم واسع لا تُدرك أطرافه، شوارعه ممتدة، عريضة، كأنها أنهار متجمدة، فأرضه من زجاج البلور الصافي النقي، تعكس صورة السماء حتى يخال للسائر أنه يمشي فوق السحاب، وتحته طبقة الزجاج البيضاء الصلبة، كانت خيوط من النور تتحرك ببطء، تهتز مع كل خطوة، كأن الأرض كائن حي يشعر بخطوات من فوقه، فهي بلورية ناعمة، ملساء، مرآة للسماء، تعكس نورًا سماويًا يتراقص تحت قدميه.

مع كل خطوة، كانت تنبعث نغمة موسيقية روحانية خافتة، كأن الشوارع نفسها تتلو ترحيبًا صامتًا بقدومه مع زوجته الجنية المسلمة، التي قادته إلى هذا العالم الجميل والغريب.

على جانبي الطريق، اصطفت أشجار لم ير مثلها من قبل، جذوعها من بلور أبيض، وأوراقها زبرجدية شفافة، تلمع مع كل نسمة هواء، وكأن كل ورقة تعزف لحنًا خاصًا بها.

أما القصور فلم تكن من حجر، بل كانت من ذهب وفضة، واجهات عملاقة مرصعة بزجاج سماوي يميل إلى الذهبي، مصقول إلى حد يُرى فيه انعكاس الشمس والقمر، وأعمدة

بيضاء ترتفع عاليًا بلون الثلج، بها رسومات منقوشة بخطوط ذهبية ضوئية تتوهج كلما مر أحد أمامها.

بوابات القصور من الذهب الخالص، مجملة بكريستال أزرق، وعقيق محفور عليه دوائر نورانية، تتبدل ألوانها حين يقترب الزائر، والقباب عالية ذهبية تتلألأ تحت الضوء، وتعكس الشمس كأنها قطعة من السماء.

وقف (صالح) يتأمل في دهشة، فالقصور من ذهب، والطوب من ذهب، والبوابات من ذهب، فتساءل في داخله:

- هل الذهب عندهم بهذه السهولة واليسر؟ هل يُبنى به كما نبني نحن بالطوب؟

ابتسم في سره، وتذكر حكايات الجن اللصوص الذين يسرقون الذهب، والتي كان الناس يصدقونها، وتكون ذريعة لهروب اللص الحقيقي، وقبل أن يضحك، جاءه صوت (كاليسا) هادئًا واضحًا كأنها تقرأ أفكاره:

- هذه حكايات يا (صالح)، وكلها تخاريف، الجان لا يسرق، والذهب عندنا مثل الرمل عندكم.

ابتسم موافقًا، ونظر إلى الشرفات، كانت من زجاج ممزوج بذهب سائل، يتدلى منها ستار مضيء يتغير لونه كل ليلة، كأن القصر خرج لتوه من الجنة، الطرق المؤدية إلى القصور والممرات كانت تُضاء بحجارة صغيرة متوهجة من الداخل، مصطفة كنجوم سقطت على الأرض لترشد الزائرين.

على جانبي الممر كانت تتدلى سحب صغيرة، ليست ماء ولا هواء، بل ضوء مجمد يتحرك ببطء، يمنح المكان قدسية لا توصف.

المدينة هادئة بلا ضوضاء، صوتها الوحيد خرير نور ووقع خطوات، الهواء نسيم بارد خفيف مريح، يحمل رائحة طيبة تشبه رائحة المطر حين يلامس خد فتاة حسناء.

وقف (صالح) عند حافة بوابة جميلة النقوش، تردد لحظة، ثم نظر إلى (كاليسا) ينتظر إشارتها، ومع أول خطوة يخطوها معها، انفتح أمامه عالم لم يتخيله قلب، ولا حلمت به عينه.

تقدم مذهولًا، لا يدري أهذا حلم، أم أن الجان المسلم يعيش فعلًا في عالم خلق من جمال خالص، وإذا كان هذا حال عالمهم، فكيف تكون الجنة؟

وفجأة، كان أمامه القصر، لم يكن قصرًا، بل جبلا من نور، واجهته من زجاج سماوي، تنعكس السماء عليه، تتقاطع فيه خيوط ذهبية، تتحرك ببطء، وكأن القصر يتنفس، أعمدته ترتفع حتى تكاد تلامس السحاب، منقوشة بآيات ضوئية، تتوهج مع كل نسيم، البوابة العملاقة من الذهب المرصع بكريستال أزرق، لم تكن مغلقة، بل كانت تنتظره.

حينما اقتربا أضاءت النقوش فجأة، وتحول الأزرق إلى أبيض ناصع، وانفتح الباب ببطء بلا صرير، بل صوت يشبه انسياب الماء؛ فدخلا ممرًا من الزجاج الخالص، تحت قدميهما خيوط نور تتحرك، وفوقهما قبة شفافة تعكس وجهه وسماء العالم معًا.

لأول مرة لم يشعر أنه ليس ضيفا، بل مختارا، فنظر إلى (كاليسا) يستمد منها القوة، فبادلته نظرة صامتة، كانت كافية ليواصل الدخول.

(٤)

فتحت أبواب القصر الضخمة ببطء مهيب، كأنها تئن تحت ثقل القرون، و(صالح) و(كاليسا) يتقدمان في صمت.

امتد الطريق من البوابة حتى القاعة الملكية عبر جنائن غناء، أشجارها وارفة وأنوارها خافتة، وعلى الجانبين اصطف الحرس في هيبة، عيونهم تراقب كل خطوة.

وأمام بوابة القاعة، وقف حارسان عملاقان، يلامس رأسا كل منهما أعلى القوس الحجري، تحركت أيديهما الثقيلة، فانفتح الباب الملكي المزخرف، وارتد صدى خطوات (صالح) و(كاليسا) في القاعة الواسعة.

تقدما إلى الداخل، وكانت (كاليسا) تسير في شموخ وكبرياء، تتجه مباشرة نحو العرش، حيث جلس والدها الملك (راكادور)، ملك ملوك الجان، كان يراقبهما بعينين حادتين لا يفوتهما شيء.

توقفت (كاليسا) أمام العرش، وقالت بهدوء واثق لا يحمل ذرة خوف:

- والدي، جلالة الملك المعظم (راكادور)، ملك ملوك الجان، لقد تزوجت (صالح) منذ دقائق، ولم يكن زواجنا بدافع العاطفة وحدها، بل لإنقاذ أولاده الذين وقعوا في قبضة جنيين شريرين قد اختطفوهم، وأرسلوهم إلى وادي الموت.

ساد صمت ثقيل، فأكملت:

- وادي الموت كما تعلم، لا خلاص منه، فلابد من تجاوز سبع بوابات، سبعة موانع، وخطوة واحدة بالخطأ، قد تكون كارثية، لذلك سأكون معه.

تحرك الملك في مقعده، وعيناه تتفحصان الزوجين ببطء وقال:

- جنيان شريران؟ وعبور سبع بوابات؟ هل تدركان حجم ما تقدمون عليه؟

تقدم (صالح) خطوة، وصوته ثابت رغم القلق:

- نعم يا مولاي، نعرف أن الطريق محفوف بالمخاطر، لكن حياة أولادي أغلى من حياتي، ولا مجال للانتظار.

ابتسمت (كاليسا) بثقة وقالت:

- لا خوف لدي يا والدي، أنا أملك المعرفة للتعامل مع هذه القوى، ونحتاج دعمك للتنسيق مع ملوك الجان الأخيار أعداء الشر، فبحكمتك وقوتك يمكننا عبور البوابات، والوصول إلى الأولاد قبل فوات الأوان.

ظل الملك يتأملها للحظات، ثم ابتسم وقال:

- أرى فيك شجاعة لم تخبُ، ونفوذًا يزداد قوة، وربما لم يعد هناك طريق آخر لمواجهة هذا الشر، سأساعدكما، لكن اعلما أن الطريق لن يكون سهلًا.

قال (صالح) دون تردد:

- لا يهمنا سوى إنقاذ الأولاد، ونحن مستعدان لأي ثمن.

نهض الملك من على عرشه وقال:

- حسنًا، سأستدعي حلفاءنا من ملوك الممالك الأخرى، وسنضع خطة لعبور البوابات السبع، ونحدد الأدوات المطلوبة؛ فالأولاد الآن بين أيدي ملوك أشرار بالغو الخطورة، فهم رجال إبليس، لكن خبرتك يا (كاليسا) ودعم أصدقائنا سيساعدكما.

توقف للحظة؛ ثم ضحك، وأضاف:

- نعم، حتى نحن لنا أصدقاء أشرار أيضا سينفعون في المهمات الخاصة.

انفجر الضحك في القاعة مع ضحك الملك، ومد يده؛ فقبلتها (كاليسا) وتبعها (صالح) باحترام، ثم قال الملك بنبرة أخف:

- تمتعا بشهر العسل كما يقول الإنس أولا، وسنلتقي بعد أسبوع لنرى إلى أين وصل رسلنا عند أصدقائنا الملوك.

(٥)

ما إن تقدم (صالح) مع (كاليسا) عبر الممر المؤدي إلى جناحهما، حتى شعر أن الهواء قد تغير وصار منعشًا، كأنه خليط من نور القمر وأنفاس الفجر، الأرض التي يسيران عليها من زجاج صافٍ، تصدر تحت أقدامهما نغمات موسيقية هادئة، وكأن البلاط نفسه يرحب بضيوف الجان، وعلى جانبي الممر وقفت خادمات رائعات الجمال، كأنهن خلقن من نور؛ طويلات، رشيقات، عيونهن خضراء تتوهج كالزمرد، وثيابهن من ضوء سائل يتحرك مثل الضباب، يكشف أكثر مما يستر، وما إن اقتربت الأميرة حتى انحنين لها وقلن بصوت واحد متناغم:

- مرحبًا بالأميرة، ومرحبًا بزوجها الأمير البشري.

نظر (صالح) حوله بذهول، عالم كامل لا يشبه عالم الإنس في أي شيء، وكان الباب تحفة أسطورية، صُنع من خشب الليان السماوي - خشب أسطوري خاص بعالم الجان - محفورًا عليه رموز قديمة تتحرك ببطء، كأنها مخلوقات صغيرة تتنفس.

لمست (كاليسا) أحد النقوش، فبدأت الرموز تضيء، وتنفرج في صمت، لتفتح الباب على مشهد لا يمكن لخيال بشري أن يتوقعه، قالت (كاليسا) بابتسامة مطمئنة:

- هنا سنقيم، وهنا يبدأ عهدنا الجديد، فهذا هو الجناح الملكي.

ما إن دخل (صالح) حتى شعر بدفء ينساب حوله، رفع رأسه، فإذا بالسقف عبارة عن سماء حقيقية، تتراقص فيها نجوم صغيرة تدور فوقهما، كأنها جزء من عالم آخر وداخل الغرفة، في وسط القاعة نافورة معلقة في الهواء، تتدفق مياهها إلى أعلى بدلًا من أسفل، وعندما تتلامس القطرات تطلق شرارات ذهبية تهبط ببطء فوق الرخام.

كانت الجدران تتغير ألوانها ببطء، من الأزرق النيلي إلى الذهبي فالوردي الهادئ، كأنها تتنفس مع المكان، فاقتربت منهن ثلاث خادمات يحملن صواني مضيئة:

الخادمة الأولى: سيدي (صالح)، هذا شراب ملكي مخصص للبشر.

الخادمة الثانية: وهذا حمام بخار بالأعشاب النورانية أُعد لك الآن.

الخادمة الثالثة: وهذه غرفة النوم مجهزة بما يلائم طبيعتك البشرية.

توقف (صالح) مذهولًا، عاجزًا عن الكلام، فالتفتت إليه (كاليسا)، وضحكت ضحكة خفيفة، ثم قالت:

- لا تقلق، هؤلاء لخدمتك فقط.

دخلا غرفة المعيشة؛ الأرض زجاجية يظهر تحتها نهر من الضوء المتحرك، وكأن الجناح بُني فوق مجرى ضوء حي، الأثاث مصنوع من خشب داكن يلمع بلمسة فضية، وكل قطعة تبدو تحفة لا يطالها الزمن، أما اللوحات على الجدران فهي ليست لوحات، بل نوافذ مفتوحة على عوالم أخرى، تتحرك فيها أطياف نورانية تتوقف احترامًا عندما يقترب (صالح).

شرب المشروب، وفعل المطلوب من حمامات وخلافه، وذهبا معًا إلى غرفة النوم الملكية، وهو لا يصدق ما يحدث له؛ فهو يحس إنه مات ودخل الجنة، وهل ما في الجنة أكثر من هذا

الدلال الذي يراه؟ وفتح باب غرفة النوم، فإذا بالسرير الدائري يطفو في الهواء على ارتفاع نصف متر، محاطًا بهالة ضوء سماوي، ومن تحته بحر ضوئي يتحرك ببطء، يشبه كائنًا حيًا يتنفس، الستائر تتحرك وحدها رغم سكون الغرفة، والوسائد مصنوعة من ريش طائر جني، تتوهج بين البنفسجي والذهبي. ومن النوافذ تظهر ثلاثة أقمار وسماء بنفسجية، وكأنها تفتح على كون آخر، تتلوى فيها السحب كأنها أرواح هائمة.

قال (صالح) بصوت مخنوق من الدهشة: طوال عمري ما رأيت شيء مثل هذا.

اقتربت منه، تضع يدها على صدره لتهدئ نبضه المتسارع وقالت: أعرف، لكن تذكر أنك زوج الأميرة، وهنا لن يقترب منك أذى.

أشارت (كاليسا) للخادمات، فانحنين فورًا ووقفن في انتظار أوامرها، وظل (صالح) واقفًا أمام هذا الجمال الساحر، بين رهبة وجلالة لا تشبه أي شيء رآه في حياته، فأمرتهن بالانصراف، فانصرفن، واقترب (صالح) من (كاليسا) وهي ممددة على السرير، وسألها بعفوية:

- أنا من أول ساعة دخلت فيها هذا القصر، ورأيت هذا الجمال، أحاول أن أتذكر لماذا جيت هنا؟ ولا أستطيع التذكر.

فضحكت، وضحك، لتبدأ أول ليلة ل(صالح) في العالم السفلي.

(٦)

كان بين (صالح) والجنون شعرة، شعرة مشدودة على حافة ما يراه ويعيشه في هذا العالم الغريب، الذي اختلط به الخيال والمستحيل بواقع يعيشه فعلا وكأنه في الجنة فداخل هذا القصر الغريب المهيب الذي يبتلع العقل قبل العين، كان يعيش وكأنه أحد أساطير ملوك الأرض، وقد تجاوز هارون الرشيد وكل من خُلدوا في حكايات «ألف ليلة وليلة».

الجواري مصطفّات أمامه في صمت مهيب، كأن أجسادهن صنعت من نورٍ صافٍ، بلا ظل ولا خطيئة، وإذا مالت عيناه إلى إحداهن، أدركت (كاليسا) ذلك في التو واللحظة، وفي سرعة تفوق الخيال تشكلت على هيئتها، وأصبحت توأمها دون أن تترك للحلم فرصة للانكسار.

كان (صالح) غارقًا في حلم جميل، يخشى لحظة الإفاقة منه أكثر مما يخشى الكوابيس، يخاف أن يفتح عينيه فيجد كل ما حوله قد تبخر، وكأن هذا النعيم لم يكن سوى خدعة بصرية عابرة، كان يعيش اللحظة متشبثاً بها، كأن الزمن قد قرر أن يتوقف احتراماً لدهشته، وفي خضم السعادة، جاءهما طلب الحضور من جلالة

الملك، والد (كاليسا)، عندها انكمش الحلم قليلًا، وتبدلت الملامح، ولم يتأخرا، بل أسرعا إليه، يحملان معهما مزيجاً غامضاً من الترقب والقلق، فالقادم يخص الاولاد وهما بانتظار رد جلالة الملك.

(٧)

دخلا قاعة العرش في سرعة، فوجدَا الملك (راكادور) جالساً على عرشه الذهبي، وأمامه مستشاروه مصطفّون في صفين متقابلين، وعن يمينه يقف الوزير، وعن يساره قائد الجيش، في مشهد يفيض بالهيبة والسلطان.

أشار إليهما الملك، فسمح بدخولهما، فتقدما حتى وقفا بين يديه، وانحنى كلٌّ منهما انحناءة خفيفة إجلالًا، فأشار لهما بالجلوس، ثم قال ضاحكاً بصوتٍ ملأ القاعة: ما أخبار الزواج؟.

فضحكا خجلًا، وضحك الجميع، قبل أن يستطرد الملك وقد عاد إلى نبرته الجادة: أنا قد بعثت رسلًا لأكبر ملكين من ملوك الشر، وهم الأعلم بوادي الموت.

وسكت لحظة، ثم أكمل: وجاءتني الردود، وسأعرضها عليكم.

بدأ الملك يشرح لهما أن الطريق إلى هذا الوادي وعر، فهو ليس بالهيّن، بل مغامرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وحتى إن وصلا، فإن الخطورة تتضاعف، ويصير الصراع صراعاً مع الموت من أجل الحياة نفسها، فبينهما وبين الوادي البحرُ

المظلم، وسُمّي بهذا الاسم لأنه لا يرى الشمس، إذ يقع في الأرض السفلية، ولا يستطيع أحد عبوره إلا بإذن ملك البحار، الملك (زَخّار)، ملك البحر السفلي.

هذا الملك هو من يملك البحر، ويملك مراكب عبوره؛ فمراكب البحر المظلم ليست من خشب، لأن كل المواد تغوص في مياهه، وعلى رأسها الخشب، فماؤه يكاد يكون بلا كثافة، ولا توجد سوى مراكب سحرية، لا يمتلكها إلا الملك (زخّار) وحده، ولذلك يتحكم في البحر تحكماً مطلقاً، وله سرٌّ قديم، متوارث في عائلته، وهو لا يتقاضى مالًا ولا جواهر مقابل العبور، بل يأخذ المقابل نساءً يصبحن جواري لديه.

ثم تابع الملك بصوتٍ أثقل: وبعد هذا البحر، إن عبرتماه، هناك وادي الرمال المتحركة، وبعده بحر الحيّات، وملكته الحية العملاقة (إبلستار)، فهو بحر بلا سمك، وإنما حيّات وثعابين فقط، وإن لم يُؤخذ إذن العبور منها، هاجمت الحيّات القوارب ومزّقتها، وابتلعت من فيها - وسكت قليلًا قبل أن يقول - وبعد كل هذا خمس بوابات، تحرسها شياطين النار التي لا تعرف المزاح، خلف كل بوابة مدينة غريبة، وأهلها أغرب، ولكل مدينة ملك صعب المراس، تحكمه نزواته، وبيده أن يُبقيك حيًّا

ويوصلك للبوابة التالية، أو يقضي عليك ويوصلك إلى حتفك، إنها ليست رحلة، أو مغامرة، بل طريق باتجاه واحد فقط، ذهاب بلا عودة.

هنا قال قائد الجيش: أستطيع إرسال جيش معهما، لكنه لن يفيد، المشكلة ليس في القتال، بل في عبور الحيش الموانع والبوابات هذه البوابات لا تُهدم ولا تُحرق، وإنما تُفتح فقط بموافقة حراسها، وتعتمد على المهارة الخاصة لمن يريد اقتحامها، وبعضها يعتمد على رصيد المقتحم من فعل الخير، لذلك فلابد من أدوات وقدرات خاصة لعبور الموانع والوصول إلى البوابات.

نهض (صالح) في هدوء، وكأنه أراد أن يعلن امتلاكهما لتلك القدرات، وقال للملك: يا مولاي، معي هدية لجلالتك.

وأخرج من جيبه قنينة صغيرة من الزئبق الأحمر، في حجم عقلة الإصبع، ومدّها للملك: هذا هو الزئبق الأحمر، أرجو أن تقبله مني.

وقبل أن يُكمل جملته، وبمجرد أن سمع الملك كلمة «الزئبق الأحمر»، خطف القنينة من يده في لمح البصر، وأفرغها في

فمه، وهو يقهقه من فرط سعادته، شربها في جزء من الثانية، وراح يقفز فرحًا، وقد عاد إليه شبابه فجأة، كأنه شاب في عمر ابنته (كاليسا)، ولم يتجاوز الخمسمائة عام.

ثم دوّى صوته في أرجاء القصر: شكراً أيها الإنسِي الكريم، إنها هدية عظيمة من رجل عظيم، شكراً يا زوج ابنتي، كنت أعلم من (كاليسا) أن معكم زئبق أحمر جئتم به ثمناً لعبور الموانع، لكنها لم تقل إن لي نصيباً منه، يبدو أنها أرادت أن تفاجئني!.

نظر الجميع إلى الملك، وقد تبدل شكله كليّاً، فقالت (كاليسا) بدهشة ممزوجة بالفرح: جلالة الملك، لقد عدت شاباً يافعاً يا مولاي!.

دخل الملك في نوبة هستيرية من الضحك لسعادته، راح يقفز فرحا ويشكر (صالح) بلا توقف، فقال له (صالح): يا مولاي، كل ما يتبقى من الزئبق بعد إنقاذ الأولاد هو هدية لك.

فرد الملك بصوتٍ مفعم بالامتنان: أشكرك، وكلنا في خدمتك، واجتماعنا مستمر حتى نرسم رحلة خلاص الأولاد.

تقدم الوزير، وقد بدا أن لديه الكثير من المعلومات، وقال: لابد من الوصول إلى الأولاد قبل الفتك بهم يا مولاي، فهذا هو الهدف من خطفهم وبيعهم للشيطان السفلي، الذي سيحوّلهم إلى مسوخ، آكلي لحوم البشر، ثم يعيدهم إلى عالم البشر لتنفيذ مهام شيطانية للمردة وسكان الظلام السفلي، وقد دفع الشيطان المقابل ل(سلَهوب) و(هيثمور)، بأن أصبحا أميرين في مملكة الشيطان.

صرخ (صالح) فزعًا: "يا سِنة سودة"! آكلي لحوم البشر؟ أنجدنا يا مولاي!.

قال الملك بحزم: لا تخف، فنحن الآن نعمل من أجلك، أنت زوج ابنتي، وقد صرت في مقام ابني، أنت الآن أمير.

قال أحد المستشارين: علينا دراسة كيفية عبور بحر الظلام، وما يليه من وادي الرمال وبحر الحيّات.

وقال آخر: عبور بحر الظلام سيكون بقنينة زئبق أحمر، وهذا سيسعد الملك (زخّار).

أومأ الملك مؤكداً: ما إن تصلا إلى بوابة البحر الكبرى، اطلبا لقاء الملك (زخّار) وقدّما له الزئبق، هذا أول مانع.

قال الوزير: المانعان الثاني والثالث سيحتاجان إلى الحصان المسحور.

فصاح الملك (راكادور) بحماس: نعم، فكرة رائعة، لكنه أين الآن؟.

أجاب الوزير: لدى الملك (جلمود)، بعد بحر الظلام وقبل بحر الرمال، ويبدو أن هذا المكان هو الأنسب له، إذ يؤجّره للراغبين في عبور بحر الرمال.

ضحك الملك، وما زال في نشوة الزئبق، وقال:

- رأي سديد، ولدي هدية أخرى ل(صالح)، السيف المسحور البتّار، الذي ورثته عن جدي، وثبّتُّ به ملكي.

قال الوزير بدهشة: معقول يا مولاي؟ إنه أعز ما تملك، وأهم سلاح في المملكة!.

رد الملك ضاحكًا: (صالح) عزيز عليّ، وزوج ابنتي ومعيد شبابي، وبعد انتهاء المهمة سيعود السيف مع (كاليسا)، فهو ميراثها أيضاً.

قال (صالح) بخشوع: ثقة غالية يا مولاي.

وقالت (كاليسا): شكراً يا جلالة الملك، شكرًا يا أبي.

قال القائد: بهذا السيف انتصرت يا (صالح)، فلا تُفرّط فيه، فالتفريط فيه تفريط في الروح.

وأضاف الوزير: بعد بحر الرمال يأتي بحر الحيّات للملكة (إبليستار) وهي شرهة للدماء، والزئبق الأحمر كفيل بها، وهذا السيف سيحميكما، وأنتما تسيران في المدن المسحورة، فكل المدن خلف البوابات من صنع الشيطان.

قال الملك: إذن كل شيء اتضح، متى تبدأ الرحلة؟

أجاب (صالح): غدًا يا مولاي، فالأولاد في خطر.

سأل الملك: وكيف ستصلان إلى البحر المظلم؟.

قالت (كاليسا): كما ترى يا مولاي.

قال القائد: بالعنقاء المسحورة، ستوصلهما إلى بوابة البحر وتعود، لأن لا شيء يطير في سماء البحر المظلم، فالبحر نفسه مسحور.

وأضاف الوزير: العنقاء تختصر الرحلة لمدة أسبوع، أما الخيل فتحتاج لشهرين.

قال الملك: وسأعطيكِ يا (كاليسا) الخاتم السحري، لنرى بعضنا، وأتابع خطواتك، وأعرف كيف أنقذكِ إن لزم الأمر.

قالت (كاليسا): شكرًا يا مولاي.

وقال (صالح): شكرًا يا مولاي.

أختتم الملك: الزئبق كفيل بملوك الموانع وسيكون سحراً لهم، أما وادى الموت نفسه وقلعه الحيات؛ فحلها عند الملك (ناران)، يمكنكما المرور عليه، فهو في الطريق، ويعرف الكثير عن طريق وادى الموت، وبانتظاركما، ولو أعطيته قنينة زئبق أحمر؛ سيخرج لك الكثير مما عنده، فهو حاوي لحيات وادى الملوك وعنده ما يوقف سمها.

قال (صالح) و(كاليسا) معًا: سمعًا وطاعة يا مولاي.

(٨)

لم يكن (صالح) يتوقّع من (كاليسا) كلَّ هذا التّفاني من أجله ومن أجل أولاده، ولا أن تُلقي بنفسها في التهلكة، وتسلك طريقًا غير محمود العواقب، فقط لأنها تحبّه، أخذ يُؤنّب نفسه، وتذكر كيف كانت تحاول التقرب منه كثيراً وهو يصدّها، وها هو الآن يرى الملك (راكادور)، والدها، وحاشيته، وكل من في المملكة، وقد أصبحوا جميعاً في خدمته.

حدث نفسه متعجبا: كيف لم يطلب الملك الزئبق الأحمر منه، رغم علمه بوجوده معه؟ بل حتى لم يُلمّح له، ولم يُحرجه أو يتحدث عنه، رغم أهميه الزئبق القصوى له، فهو الذي أعاد إليه شبابه في اللحظة نفسها.

تقدمت منه (كاليسا)، وقد قرأت ما يدور في فكره، وقالت بهدوء وصدق: يا (صالح)، نحن مسلمون ونخاف الله، ولا نأخذ ما ليس لنا، وما أُخذ بسيف الحياء فهو حرام، أنت زوجي وحبيبي، وكلّي ملكك.

نظر إليها (صالح) بعينين ممتلئتين حباً وامتناناً، وقال: وأنتِ زوجتي وحبيبتي، وكل ما أملك في الدنيا.

ابتسمت، وقالت بصوت دافئ: وأنا من أجل هذا الكلام الجميل، أُضحّي بنفسي وأنا سعيدة.

تنهد (صالح) وقال: الرحلة صعبة، وأول مانع على بُعد أسبوع، كيف سننام ونأكل؟ هل سننزل أي مدن في الطريق؟.

ضحكت (كاليسا) بخفة، وقالت: يا (صالح)، العنقاء أفضل من الطائرة عندكم! ظهرها يتشكل كما تشاء، تجد فوقه مقاعد وثيرة، وتتحول إلى سرير حسب رغبتك، تطلب منها فتُنفذ.

أنتم تسمونها "الطائر المستحيل" لأنكم قرأتم عنها فقط، ولم تروها أصلًا؛ لأنها لا تظهر في عالمكم، فهي طائر الجان، أمّا الطعام، سأحضره لك في غمضة عين، فلا تخف، فالعنقاء تستطيع أن تعيش شهراً بلا نوم، كما تستطيع أن تنام وهي تطير، إنها العنقاء، طائر المستحيل.

قال (صالح): والزئبق، كيف سنحميه ونحفظه؟.

ضحكت وقالت بثقة: لا تخف، سيكون معي، أنا أحميه، فلي طريقتي، أنسيت أنى جنيّة!.

ثم أضافت ممازحة: مش عندكم لما حد يعمل حاجة غريبة تقولوا عليه: "ابن جنيّة".

ضحكا معًا، فمال (صالح) وقبّلها، ثم أردفت قائلة: هيا نودّع الملك، فكل شيء مُعَدّ للرحيل، والعنقاء وصلت في الخارج.

(٩)

انطلقت بهما العنقاء، فوجد (صالح) نفسَه محلقاً في الفضاء، جالساً على كرسي فخم وثير، وبجواره حبيبته (كاليسا)، كان الكرسي أريحَ من أي طائرة، والهواء المنعش يُداعب وجهه، و(كاليسا) إلى جواره كأنها حوريّة من الجنة، لولا همُّ الأولاد، الذي يُنغِّص عليه حياته، لكانت السعادة تدق قلبه بقوّة، نظر أسفلَه، فرأى القصورَ الفارهة، والشوارعَ الواسعة، والأشجار البديعة، وكل مشاهد الجمال في تلك الإمارة التي أحسّ أنها قطعةٌ من الجنة، حتى الجبال والغابات من حولها كانت خلّابة، وفوقه كانت جبال السحاب تسبح في الفضاء، وطيور كثيرة تطير هنا وهناك، التفت، فوجد (كاليسا)، آيةً من الجمال، تقترب منه وتلتصق به، فقبلها ورَبَتَ على شعرها وضمها لصدره، وأمامه ما لذّ وطاب من الفاكهة والطعام الشهيّ، وقدمت له ماءً وقالت بابتسامة:

- أتعرف ما هذا؟ جلبته لك في التوّ واللحظة، هذا ماء «زمزم».

فرح به وشرب، ظلّ يشاهد ما حولهما، يراقب الأرض تحتهما والسماء فوقهما، وكان الوقت يمرّ وهما على ظهر العنقاء في

طريقهما نحو مملكة الملك (ناران)، نام وقام أكثر من مرّة، ولم يتغير شيء، ثم بدأ المكان أسفلَهما يتبدل، لم يعد يرى سوى جبالٍ قاحلة، وأرض بور، واختفت القصور والشوارع الواسعة، وكأن الحياة كانت تلم أشلاؤها استعداداً للرحيل، ظهرت أشكال غريبة؛ لا تعرف إن كانت حيوانات أم جان؟.

وقبل أن يسأل، جاءه ردّ (كاليسا): هذه بداية مملكة (ناران)، - ثم أضافت بصوتٍ جاد - وبعد ساعتين سنهبط.

شعر (صالح) بأن الإحساس بالطمأنينة بدأ يتآكل شيئًا فشيئًا، فالهواء الذي كان عليلًا صار أبرد، أثقل على الصدر، وكأنه يحمل أنفاسًا خفية، جلس على الكرسي الوثير، لكن جسده لم يعُد يشعر بالراحة، وبجواره كانت (كاليسا) صامتة على غير عادتها، وعيناها شاخصتان إلى البعيد.

لولا همُّ الأولاد، الذي كان ينهش قلبه نهشاً، لربما قاوم هذا القلق، لكن الخوف تسلّل إليه دون استئذان، نظر أسفله، فرأى الألوان الزاهية وقد اسودّت، حتى بدا العالم كلوحةٍ سُحبت منها الحياة، لا أشجار، لا خضرة، لا حياة، وفوقه، لم تعُد جبال السحاب بيضاء وديعة، بل صارت كتلًا رمادية داكنة، تتراكب

كأنها جدران سجن معلّق في الفضاء. الطيور التي كانت تملأ السماء اختفت، ولم يبق سوى صمت ثقيل، يخترقه أحياناً صريرٌ غامض، لا يُعرف أهو صدى الرياح أم أنين كائنات لا تُرى.

التفت، فوجد (كاليسا) تقترب منه وتلتصق به أكثر، وكأنها تحاول أن تقيه شيئًا لا يراه، قبّلها، لكن قلبه لم يهدأ، وأمامهما ما لذّ وطاب من الطعام، غير أن نفسه عزفت الأكل؛ فقد بدأ الخوف يسيطر عليه، قدّمت له ماءً مرةً أخرى، وقالت بصوتٍ خافت: اشرب فهذا ماء «زمزم».

شرب، فشعر بدفءٍ يسري في عروقه، لكن القلق لم يزل.

مرّ الوقت ثقيلاً، وازداد المشهد قتامة، ثمّ فجأة، تغيّر كل شيءٍ أسفلَهما، ظهرت جبال سوداء حادّة، كأنها أنياب وحش هائل، وأرض بور متشققة تتصاعد منها أبخرة كريهة، ومستنقعات واسعة تمتد بلا نهاية، سرت قشعريرةٌ في جسد (صالح)، وأراد أن يسأل، لكن صوتَه خانَه، وجاءه صوت (كاليسا) هذه المرة بارداً حازماً: هذه مملكة (ناران)، لقد وصلنا.

(١٠)

هبط (صالح) و(كاليسا) من على ظهر العنقاء عند تخوم مملكة (ناران)، حيث لم تكن الأرض أرضًا، بل جسدًا أسود نابضًا بالشر، الهواء ثقيل خانق، يحمل رائحة احتراق قديم لا ينطفئ، وكأن المدينة احترقت يومًا وبقي رمادها معلقًا في السماء.

كانت الأسوار عالية مشققة، كأنها بُنيت من عظام متحجرة لا من حجر، تتخللها شقوق حمراء متوهجة ينبعث منها ضوء خافت يشبه أنفاس كائن حي يحتضر، وعلى الأبراج وقفت شياطين مجنحة، أعينها مفتوحة لا ترمش، تتابع كل من يقترب من المملكة وكأنها تستعد للانقضاض.

دخل (صالح) و(كاليسا) من البوابة الرئيسية دون حراسة تُذكر، فهذه المملكة لا تحتاج إلى حراس؛ الشر فيها يكفي لحراستها؛ فمن يستطيع اقتحامها؟ ومن يطمع أن يستولي على الشر؟ هل هناك من يطمع في الشر؟.

فشوارعها ضيقة ملتوية، مرصوفة بأحجار سوداء لزجة تترك أثرًا على الأقدام، كأنها تحاول التمسك بمن يسير فوقها، البيوت

متلاصقة، جدرانها مائلة، نوافذها كالأفواه المفتوحة تصدر همسات خافتة، ضحكات مكسورة، وصراخًا مكتومًا.

كان الناس في شوارع (ناران) ليسوا بشرًا ولا جانًا، وجوه شاحبة، عيون غائرة، ابتسامات مشوهة، وأجساد تحمل آثار لعنة قديمة، بعضهم يسير منحنيا، وبعضهم يجر ظله خلفه كأنه كيان منفصل عنه، أطفال بعيون سوداء يحدقون في المارة بلا رموش، ونساء يبعن أشياء لا يُعرف إن كانت سلعًا أم أرواحًا.

قال (صالح) بصوت منخفض: هذا المكان غير طبيعي.

أجابته (كاليسا)، وعيناها لا تفارقان المشهد: الملك (ناران) لا يحكم مدينة، بل هو يحكم الخوف ذاته.

في قلب المدينة ارتفع القصر، لم يكن قصرًا بقدر ما كان كتلة هائلة من الظلام، شُيّد من صخور سوداء مسننة، كأنها أنياب عملاقة مغروسة في الأرض، أبوابه من حديد داكن، منقوشة برموز لعقود شيطانية، وكل رمز ينبض بوميض أحمر كأنه قادم من جهنم، عند اقترابهما، انفتحت الأبواب وحدها، بصرير طويل كأن القصر لا يرحب بهما، بل ليبتلعهما.

(١١)

داخل القصر الممرات طويلة، سقوفها عالية، تتدلى منها سلاسل حديدية تحمل جماجم متآكلة، ما زالت أفواهها مفتوحة وكأنها تصرخ للأبد، والأرضية سوداء مصقولة تعكس الوجوه بشكل مشوه، فلا يرى المرء صورته الحقيقية.

وصلا إلى قاعة العرش، وكان ناران جالسًا على عرشه الحجري الأسود، ساكنًا كأنه جزء من الصخر، لم يطلب منهما التقدم، ولم يأمرهما بالكلام، ترك الصمت يضغط عليهما حتى صار أثقل من القيود.

قال أخيرًا، بصوت قوى أجش: أنا أعرف سبب مجيئكم.

رفعت (كاليسا) رأسها بثبات: إذن انت تعرف أن (سلهوب) و(هيثمور) خطفا الأطفال.

تحركت زاوية فم (ناران) حركة بالكاد تُرى: أعرف.

قالها ببطء، ثم أضاف: جان خونة، باعا أنفسهما للشيطان مقابل لقب أجوف.

قالت (كاليسا): إذن أنت تكره الشيطان مثلنا؟.

ضحك (ناران) ضحكة هزت القصر: ليس مثلكم؛ فأنا أكرهه لأني أكثر منه شيطنة.

تقدم (صالح) خطوة، وقال (ناران) آمراً: قِف.

توقف (صالح) وقد تملكه الرعب، فقال (ناران) وهو ينظر إليه كما يُنظر إلى فريسة: الأطفال أُخذوا ليُعادوا مسوخًا، يُغسل عقلهم، وتنكسر إنسانيتهم، ثم يُعادوا لعالمكم أدوات قتل.

شد (صالح) قبضته: نعم، وقد جئنا إليك أيها الملك القوي قبل أن يحدث ذلك.

ضحك (ناران) ضحكة قصيرة بلا مرح: وادي الموت لا يُقتحم؛ فمن يدخله دون إذن، لا يخرج.

قالت (كاليسا): لكنك تعرف مداخله، وتعرف كيف يُكسر حصاره.

نظر إليها طويلًا، ثم قال: أعرف، و(سلهوب) و(هيثمور) يعرفان أنني أعرف.

ثم مال بجسده إلى الأمام وقال: ولهذا لم يأتيا إليّ، ولهذا أخفيا الأطفال خلف الحيات في وادي الموت.

ثم نظر إلى (صالح): بشري ضعيف، تريد اقتحام وادي الموت؟.

قال (صالح) بصوت مبحوح لكنه ثابت: أريد إنقاذ أولادي يا مولاي.

ساد الصمت، ثم قال (ناران) ببرود قاتل: الرغبة لا تفتح الأبواب، ولا تُعمي الحيات، ولا تُسكت النار.

ثم أشار بيده ل(صالح): تكلم، ما الذي جئت به؟

تنفس (صالح) الصعداء، وأخرج قنينة الزئبق، فلمع الزئبق الأحمر داخلها كأنه حي. وقبل أن ينطق، اختفت القنينة من يده، لم يتحرك (ناران) من فوق عرشه، لكن القنينة صارت بين أصابعه.

وقال ناران وقد تغير صوته: هذا يفتح الأبواب، ويعيد الشباب.

قال (صالح) مسرعا: مقابل القلادة التي تُعمي الحيات في قلعة وادي الموت.

ضحك (ناران) ضحكة قصيرة حادة: مقابل؟.

ثم رفع عينيه إليه: أنت لا تفاوضني، بل تتوسل.

قالت (كاليسا): أنت الملك، ونحن نرجوك ونريد مساعدتك، ولذلك أرسلني الملك (راكادور) صديقك.

نزع السدادة بأسنانه، ورفع القنينة إلى فمه، وشربها وهو جالس، فارتجف جسده فجأة انحنى ظهره، ثم بدأ يستقيم ببطء، وكأن الزمن يُسحب منه قسرًا، فتلاشت التجاعيد، واشتدت العظام، وسال نور أحمر تحت جلده، فنهض (ناران)، لكنه نهض شابًا، فنظر إلى يديه، ثم أطلق ضحكة عالية ارتد صداها في القاعة، ثم خطا خطوة واحدة خارج العرش، وقال:

- الآن يمكنني أن أكرههم كما يجب، اللعنة على إبليس وحياته، فليذهب (عزازيل) إلى الجحيم.

اقترب من (صالح) حتى صار بينهما نفس واحد وقال:

- (عزازيل) أخفى الأولاد خلف الحيات لأن الحيات لا تُبصر النور.

استدار، وأشار، فجاء الخادم بالصندوق، فتح (ناران) الصندوق، وأخرج القلادة، فانبثق منها شعاع أبيض حاد.

قال: هذه قلادة الشعاع، نورها يُعمي الحيات، ويكسر أسطورة قلعة وادي الموت، فنهايتها على يديك يا هذا.

ثم علقها (ناران) حول عنق (صالح) وقال: اقتحم القلعة، واقتل الحيات، وإن وجدت (سلهوب) و(هيثمور)، فوجه إليهما شعاع القلادة، فستقتلهما مثل الحيات.

ثم نظر إلى (كاليسا): لولا أنك ابنة (راكادور)، لكنتما طعامًا للبوابة الأولى.

عاد إلى عرشه، وقال دون أن ينظر: اخرجا، فلولا الزئبق لقتلتك يا ابن الطين، فالشر سبقكم بخطوة.

(١٢)

لم ينطق الملك (ناران) بكلمة أخرى، وبإشارة واحدة فقط من يده، انفرجت أبواب قاعة الحكم العملاقة ببطء مهيب، كأنها تُطوى على سر لا يقال.

لم يلتفت (صالح) ولا (كاليسا) خلفهما؛ كان الصمت الذي تركاه أثقل من أي وداع، وأشد وطأة من تهديد معلن، خرجا من القاعة، وسارا في الممر الطويل، والحرس الأسود المرعب مصطفًّا على الجانبين، لا حركة في وجوههم ولا رحمة في نظراتهم، خطواتهما وحدها هي التي تُسمَع، ترتطم بالحجر ارتطامًا جافًّا، كأن القصر نفسه يعدّ ما تبقّى لهما من خطوات، وما إن تجاوزا البوابة الخارجية حتى اندفعا إلى العنقاء، وركبا في خفة ولهفة، وكأنهما يهربان من الموت.

انطلقت العنقاء، وحلّقت في السماء، تضرب بجناحيها بقوة؛ لتبتعد بسرعة عن مملكة (ناران) الكئيبة، دون أن يغادرا دائرة الشر؛ فمنذ اللحظة الأولى لدخول حيز مملكة (ناران)، كان كل ما أسفلهما ينبئ بأن الطريق إلى العالم السفلي ليس انتقالًا، بل انحدارًا بطيئًا نحو العتمة.

(١٣)

في اليوم الأول بعد خروجهما من (ناران)، بدت الأرض تحتهما مدنًا سوداء قاتمة، أسوارها عالية، وشوارعها ضيقة ملتوية، رأى جموعًا من الجان يتحركون بعجلة، وجوههم قاسية، وأجسادهم مدججة بالسلاح، لم تكن مدنًا تُسكن، بل ثكنات حرب لا تهدأ، دخان يتصاعد من البيوت، وصليل سيوف لا ينقطع.

مر الوقت ثقيلًا، وشعر (صالح) بالجوع، وبمجرد شعوره بالجوع، وهو ما زال يحدث نفسه ولم يعلن عن جوعه ل(كاليسا) بعد، فجاءة وجد الطعام أمامه جاهزًا، ساخنًا يتصاعد منه البخار، ابتسم ابتسامة سعادة، ونظر إليها وكأنه يسألها: كيف عرفتِ؟

ردت باسمة: دائما تنسى أني أقرأ أفكارك.

ضحك وقبّلها، وأكل وشرب ماء زمزم الذي تحرص عليه (كاليسا)، وتقول: إنه أفضل ماء للمسلم، وأنا مسلمة، وأعرف هذا وأحبه وأشربه بالطبع.

وتلته (كاليسا) بكوب الشاي، وقالت ضاحكة: "الشاي علشان تحبس".

فضحكا معًا، وقبّلها، وأخذ يرقب الممالك السوداء التي تسبح في شر بلا حدود وهما في طريقهما إلى العالم السفلي؛ ثم أثقلته غفوة، وحين استيقظ أدرك أن اليوم الأول قد انقضى، وأن المشهد تغيّر.

في اليوم الثاني، اتّسعت الأرض أسفلهما، وظهرت مدن غارقة في المستنقعات، طرق مغمورة بسوائل سوداء، وجان مشوهون يخرجون من الجبال، ويعودون إليها، كأنهم جزء منها، صراعات عنيفة تدور فوق الجسور الخشبية المتآكلة، ونيران تُشعل بلا سبب سوى القتل والدمار.

نام (صالح) ليبتعد عما يرى، وكأن بنومه يسرع الأيام، ثم صحا، والهواء قد صار أثقل.

في اليوم الثالث، لم يعد يرى مدنًا واضحة، بل ساحات مفتوحة للقتال، جيوش من الجان تتواجه، أصوات صراخ تمتد إلى السماء، وأجساد تسقط دون أن يلتفت إليها أحد، الأرض نفسها كانت سوداء، تملؤها الجثث، وقد شربت من الدم حتى ارتوت.

في اليوم الرابع، بدأ يشعر أن الزمن يتكسر، ينام ويصحو، ولا يعرف كم مر من الوقت، لكن المدن أسفلهما ازدادت تشوهًا، مبانٍ مائلة، أبراج نصفها منهار، وكائنات تراقب السماء بعيون حمراء، وكأنها تشعر بمرورهم، لم يكن هذا عالمًا يعيش، بل عالمًا يتآكل ببطء، أين هذا من مملكة (راكادور) التي تُعد قطعة من الجنة.

قال (صالح) بصوت خافت: كل يوم أسوأ من اللي قبله، ما كل هذا الشر؟ أين هذا من مملكتكم؟

أجابته (كاليسا) دون أن تحيد بنظرها: الشر يزداد لأننا نقترب من العالم المظلم بما فيه من شر، وكل هذا الشر لأننا في طريق العالم السفلي، أما الطريق في الاتجاه المعاكس للعالم السفلي فهو مثل مملكتنا، كله خير وجمال.

وفي اليوم الخامس، اختفت ملامح المدن تقريبًا، وحلت محلها أراضٍ واسعة من المستنقعات والنيران، جان أشبه بالوحوش يتقاتلون بأيديهم وأسنانهم، بلا سلاح، بلا قانون، السماء فوقهم صارت رمادية داكنة، لا طير فيها ولا سحاب ولا ضياء.

نام (صالح)، واستيقظ ليجد نفسه في اليوم السادس، أحس أن صدره يضيق مع كل نفس، رأى أسفلهما مدنًا مهدومة بالكامل، لم يبق منها سوى أطلال سوداء، وكأنها بقايا عوالم سقطت قبل زمن طويل، لا حركة إلا زحف الكائنات، ولا صوت إلا أنين الأرض، وفي اليوم السابع، لم تعد المدن مدنًا، صارت الأرض نفسها فمًا مفتوحًا. تشققات هائلة، أبخرة حارة تتصاعد، وظلام كثيف يبتلع كل ما حوله، فأدرك (صالح)، دون أن يقال له، أن هذا بداية العالم السفلي، فتح عينيه على اتساعهما، وهمس: سبعة أيام، ونحن ننزل.

قالت (كاليسا) بصوت ثابت: نعم، وما بعد هذا، ليس من عالمنا.

أمامهما، انشقت الأرض عن بوابة غائرة، فتحة سوداء تتنفس حرارة خانقة، كأنها مدخل جوف العالم، لم تكن عليها حراسة ولا علامات؛ الشر نفسه كان الدليل، وانحدرا نحوها، ودخلا باب العالم السفلي.

(١٤)

بدأ الهواء يثقل أكثر فأكثر، ويضغط على صدر (صالح) حتى صار كل نفس عبئًا عليه، وفي اللحظة نفسها، أطلقت العنقاء صرخة حادة؛ لم تكن صرخة طائر، بل زئيرًا غاضبًا، أو تعويذة قديمة تحميها من شر العالم السفلي، ارتج الفضاء من حولهما، وتشققت السحب الرمادية، فانفتحت تحتها هاوية سوداء لا يُرى لها قرار، لم تكن حفرة في الأرض، بل فمًا هائلًا، يتنفس ظلامًا.

قالت (كاليسا) بصوت خافت متوتر: وصلنا.

اقتربت العنقاء ببطء، وكل خفقة من جناحيها تُحدِث دويًا مكتومًا، كأنها تحط فوق عظام مدفونة منذ عصور، وفي قلب الهاوية بدأت معالم البوابة تظهر، لم تكن بابًا، بل دائرة عظيمة من صخر أسود أملس، محفور عليها رموز ملتوية، تتحرك كأنها حية تسعى، كانت الرموز تتوهج أحيانًا بلون أحمر داكن، ثم تخبو، كنبض قلب شيطاني لا يهدأ.

حول الدائرة، سلاسل ضخمة مغروسة في الأرض، تمتد إلى العدم، لا يُعرَف ما الذي تمسكه أو ما الذي تمنعه من الخروج، وكل سلسلة كانت تصدر أنينًا خافتًا، كأنها تشكو ثِقَل ما تحمله.

فجأة، انفتح شق في قلب الدائرة، اندفع منه هواء متعفن، يحمل رائحة دم كريهة، وسمعا صراخًا بعيدًا غير واضح الكلمات، لكنه كافٍ ليجعل الروح ترتجف، رأى (صالح) ظلالًا تتحرك خلف البوابة، أطرافًا مشوهة، وعيونًا تلمع في العتمة، تراقب في صمت جائع.

قال (صالح)، بصوت مبحوح: ما هذا المكان؟

أجابت (كاليسا)، وهي تمسك يده بقوة:

- هذه بوابة العالم السفلي، أول بوابة في الطريق، خلفها بحر الملك (زَجّار)، انتظر.

ازداد توهج الرموز، وبدأت الأرض تهتز، وارتفعت الهمهمات، كأن آلاف الأرواح تتجادل خلف الجدار الأسود.

ثم قالت (كاليسا) بنبرة لا تقبل التراجع: من هنا يبدأ الاختبار الحقيقي، إما نعبر، أو نُبتلَع.

(١٥)

هبطت العنقاء ببطء أمام بوابة العالم السفلي، وضربت الأرض بمخالبها الهائلة، وأطلقت صرخة أخرى، وكأنها تنادي الحرس خلف البوابة ليفتحوها، فارتجفت الصخور السوداء تحتها، طوت جناحيها، وخفت وهج ريشها، كأنها تعرف أنها تقف على عتبة محرمة، نزل (صالح) و(كاليسا) عن ظهرها، وما إن وطئت أقدامهما الأرض حتى أحسا بثِقَل خانق، كأن المكان يرفض وجودهما، رفعت العنقاء رأسها، ثم توقفت ساكنة، تنتظر الإذن بالانصراف.

في تلك اللحظة، انشقت البوابة، وخرج حارس عملاق هائل، وخلفه ظهر مساعدوه من العماليق الأقل حجمًا، يحملون سلاسلا وسيوفًا، وعيونهم تلمع بالشر.

دوّى صوت الحارس كالرعد:

- هذه صرخة العنقاء، فمن الذي تطأ قدماه أرض العالم السفلي وجاء يطلب العبور؟.

تقدمت (كاليسا) خطوة، وقالت بثبات:

- أنا (كاليسا) بنت الملك (راكادور)، وهذا زوجي (صالح)، جئنا إلى ملك البحار (زَجّار) طلبًا للعبور.

ضحك الحارس ضحكة ثقيلة:

- لا طريق إلى (زَجّار) إلا بإذن، ولا إذن إلا بثمن، يبدو أن الثمن أنتِ أيتها الجميلة، فجمالك سيروقه، وهو يحب الجواري، وهذه المرة أنتِ أميرة. "وأطلق ضحكة عالية" وبعد أن يملّكك ستكونين لنا نحن حرسه الشخصي.

قال (صالح) بصوت متماسك:

- إنها أميرة، وأبوها الملك (راكادور) ملك كبير، وبين الملوك اتفاق احترام للمكانة، فهي ليست بجارية، إنها زوجتي، و(زَجّار) لديه الكثير من الجواري، ومعنا ما يستحق أن يُقدَّم بين يدي الملك (زَجّار)، وأهم من نساء الكون لمن تقدّم سنه وضعف جسده.

أشارت (كاليسا)، فظهر بين يديها قنينة الزئبق الأحمر، ينبعث منها بريق أحمر قاتم، كأن داخله نار سائلة، ثم قالت: الزئبق الأحمر، هدية لملك البحار (زَجّار).

تغير وجه الحارس، وتقدم خطوة، وحدق في القنينة طويلًا، ثم همس أحد العماليق بكلمات غليظة في أذنه، فهز العملاق رأسه ببطء، ثم قال أخيرًا:

- (زَجّار) لا يُخدع، فإن صدق ما تحملانه، فسيترككما تعبران البحر، وإن كذبتما، فالعالم السفلي قبركما.

ثم رفع رمحه، وضرب به الأرض، فانفتحت البوابة، وظهر طريق مظلم ينحدر إلى الأعماق، يتردد فيه خرير ماء بعيد.

التفت الحارس إلى العنقاء، وقال بصوت آمر: لقد أُذِن لكِ بالانصراف.

أطلقت العنقاء صرخة حزينة، التفتت فيها نحو (صالح) و(كاليسا)، ثم فردت جناحيها، وارتفعت في الهواء ببطء، حتى ابتلعها الظلام، وعادت من حيث أتت.

نظر (صالح) إليها وإلى أعلى، وهو يرى السماء في العالم السفلي لأول مرة، السماء حمراء، لونها أحمر لكنه ليس داكنًا، بل فاتح، تعجب، سماء حمراء! إنه في كابوس رهيب، وشعر للمرة الأولى أن الرجوع لم يعد خيارًا، وعليه أن ينساه.

قال الحارس: اتبعاني، فملك البحار (زَجّار) لا ينتظر أحدًا.

انطلق بهما نحو الطريق المنحدر، حيث بدأ صوت البحر السفلي يعلو، كأنه أنين عالم غارق في اللعنة.

(١٦)

ما إن انحدروا خلف الحارس، حتى رأوا أمامهم البحر، لم يكن بحرًا كما عرفه (صالح) من قبل؛ فلا زرقة، ولا موج، ولا لمعان، كان مسطحًا هائلًا من سائلٍ داكن، أقرب إلى الزئبق منه إلى الماء، ساكنًا سكون الموت، كلّما اقتربوا، شعر (صالح) بثِقَلٍ في صدره، كأنّ الهواء نفسه صار أثقل.

قالت (كاليسا) بصوتٍ منخفض:

- هذا هو بحر (زَجّار)، ماءٌ بكثافة صفر، لا يطفو عليه شيء، لا خشب، ولا حجر، ولا جسد، حتى ريشة الطائر تغوص.

نظر (صالح) إلى صخرة سقطت من الحافة، فلامست السطح، ولم تُحدِث تموّجًا، بل اختفت في لحظة، كأنها لم تكن، وفي قلب هذا السكون المرعب، ارتفع القصر.

قصر عظيم نُحِت من صخور سوداء ملساء، تتداخل فيها عروق لامعة كأنها فضة حية، أعمدته شاهقة، وسقوفه مقوسة، وكأنه خرج من جوف البحر لا بُني فوقه، ورغم قسوته، كان للقصر جمال غريب، جمال بارد يرهب ويأسر في آن واحد، وعند

بواباته، اصطفت الجواري، فائقات الجمال، بملابس من أقمشة شفافة تتماوج رغم سكون الهواء، وجوههن مضيئة، عيونهن واسعة، لكن في نظراتهن عمق لا يُطمئِن، كأنهن يعرفن أسرار البحر، فتح الباب الكبير، ومن خلفه أكثر من طرقه وأكثر من باب، ودخلوا.

في صدر القاعة، يجلس (زَجّار)، وحوله حرس وعسكر، وجواري في كل مكان فهو محب ومتيم بهن، جواري حسان فوق ما تخيل (صالح)؛ ف(زجار) ملك متوج جالس على عرشة الذهبي، عملاق جاف الملامح، كصخر نحت بلا رحمة، لحيته سوداء كثيفة، وعيناه بلون البحر ذاته، ساكنتان، لا تظهِران فرحًا ولا غضبًا، بدا كأنه لا يتحرك، حتى ظن (صالح) أنه تمثال، ثم تكلم.

(زجار): اقتربا.

تقدّم (صالح)، وقدم قنينة الزئبق: هذه هديتنا لك، يا ملك البحار، الزئبق الأحمر.

ما إن فُتِح الإناء، حتى انتشر وهج أحمر نابض، انعكس على جدران القصر، عندها فقط، تغير (زَجار)، فارتجفت شفتاه،

وانفرج فمه عن ابتسامة بطيئة، ثقيلة، كأنها لم تستَخدَم منذ دهور، وفى لمح البصر سكبها في فمه وهو يهلل، وانزعج كل الحضور، وكأنه أول مرة يضحك في حياته، أو يخرج صوت كبير كهذا، يبدوا أن القتل كان اسهل عنده من الصياح والضحك، لكن الزئبق الاحمر له فرحته فقد تغير (زجار)، وعاد شابا يافعا بهذه القنينة؛ فصاح: أخيرًا، جاء الزئبق وعاد الشباب.

نهض كعملاق، ودوّى صوته في القاعة: بهذا أستعيد ما فقدته من شبابي، وسأزيد سلطاني على الأعماق.

أشار بيده، فانحنت الجواري، وانسحب الحارس والعماليق.

قال (زَجّار): سأفي بوعدي، ستمران عبر البحر الذي لا يرحم، لكن لا مركب من هذا العالم يستطيع حملكما.

صفق بيديه مرة واحدة، فاهتز القصر، وانشقت الأرض أمامهم، ليخرج مركب غريب، مصنوع من الهواء، فهو كوسائد هوائية تطفو على الماء، كأنّه صُبَّ من هواء متجمّد، ثم قال:

- هذا هو المركب السِّحري، صنع من الهواء؛ ليعبر فوق ماء صفري الكثافة، وإن سقط فيه جسد، غرق إلى الأبد، أما أنتما، فمصيركما مع هذا المركب.

نظر (صالح) إلى البحر الساكن، ثم إلى المركب، الذى لا يبدو كمركب، فلا يرى له حدود غير الظلام، الظلام فقط يحدد شكل المركب لأنه هواء.

قال (زَجّار)، وهو يعود إلى عرشه ويحرك ساعديه سعادة بالشباب الذى عاد:

- اركبا، ولا تلتفتا خلفكما؛ فالبحر لا يحب من ينظر إليه طويلًا، ولكن أنتما ضيفاي اليوم، وغدا مع بداية الليل تبدأ الرحلة.

فقال (صالح): لا وقت عندنا؛ فالأولاد في خطر ونريد انقاذهم.

رد غاضبا: (زخار) لا ترد له كلمة، أنتما ضيفاي، هديتكما لى أكبر هدية جاءتني، لابد من الاحتفال بكما، وستقصان عليّ قصة الاولاد؛ فربما اساعدكما؛ فهديتكما أسرتني.

ردت (كاليسا) بسرعة: أمرك أيها الملك، كما تشاء.

- اذهبا للراحة، ونلتقي في المساء.

فذهبا مع الجواري إلى جناح الضيوف.

(١٧)

انطلق القارب الهوائي ب(صالح) و(كاليسا)، وسط اندهاش (صالح) لما يحدث، كيف يجلس في الهواء فوق الماء ولا يسقط فيه؟

الهواء يحجِمُ نفسه دون أن يكون داخل حيز يحجمه، بالون أو وسائد بلاستيكية تشكل القارب، والهواء متجمد تحته، وهو يجلس فوقه ولا يراه، كان البحر مظلمًا، ظلام ممتدٌّ في كل اتجاه، على مدى بصره لا يرى سوى ظلام، والرائحة غريبة وقديمة، تُذكّره برائحة الجبن القديم، رائحة السنين وهى تتعفن في العتمة، وبجواره كانت (كاليسا) صامتة، مترقِّبة، ينتظران المجهول.

نظر إليها (صالح)، وتكسر صوته بين القلق والدهشة، وسألها: هل سيحدث لنا شيء مفاجئ قد يضرنا في هذا الموقف الغريب؟

التفتت إليه بهدوء، وعيناها تلمعان بثقة غير بشرية: نحن في حماية (زجار)، وكل شيء هنا تحت سيطرته.

وما إن أنهت كلماتها، حتى اهتز البحر من أسفل القارب الهوائي اهتزازًا خفيفًا؛ كأن شيئًا عملاقًا قد تقلب في نومه، تصلّب الهواء أكثر تحتهما، وتباطأ القارب فجأة، ثم عاد للانزلاق من جديد، كأنه يتذكر الطريق، ثم ابتلع الظلام الصوت، ولم يبق سوى أنفاسهما، والزمن الذي بدا أخف وزنًا من الهواء.

(١٨)

ظل القارب الهوائي ثابتًا، وهو يشق بحر الملك (زجار)، لا يتأثر بما يحدث حوله، كأنه يسير فوق ناموس لا يكسر.

فجأة، تشقق سطح البحر في دوائر متتابعة، وخرجت منها كائنات شيطانية، أجسادها سوداء لامعة، وأعينها متوهجة بلون النحاس المحروق، أحاطت بالقارب، تطفو فوق البحر، لا تلمسه، ولا تجرؤ على لمس القارب؛ فخرج صوت جماعي متداخل، كأن عشرات الحناجر تتكلم في وقت واحد:

- الزئبق الأحمر، سلّماه لنا، ونترككما تعبران أحياء بسلام.

تقدّم أحدهم أكثر من اللازم، فارتطم بحاجز القارب الغير مرئي، فتراجع وهو يزأر.

نظر (صالح) إلى (كاليسا) بقلق: أهم يعرفون ما معنا؟

ابتسمت ابتسامة باردة: رائحته تسبق خطاه.

عاد الصوت الشيطاني أكثر حدّة: إن لم تسلّماه، سنخطفكما، ونقتلكما، ونأخذه من جثثكما.

تقدّم اثنان من الكائنات، فمدّ أذرعًا دخانية، تحاول الإمساك ب(صالح)؛ فوقف (صالح) متسمرًا، لكن (كاليسا) تقدمت خطوة للأمام، وهي ترفع كفها بثقة: جربوا هذه منى.

انفجر الهواء حول يدها بوهج أزرق، وتحول إلى دوائر طاقة معقدة، تدور بسرعة جنونية، ثم قالت صائحة ب(صالح): السيف يا (صالح)، وجهه إليهم واضرب بقوة، أنتم في بحر (زجار).

ثم قالت بصوت مرتفع: وأنا جنيته.

رفع (صالح) السيف، ووجهه إليهم؛ فخرجت منه قذائف نيران حارقة، واندفعت كالسهام، فاخترقت أجساد الكائنات، تقطيعاً وتفكيكاً؛ صرخت الكائنات، وتفتّتت إلى دخان أسود ابتلعه البحر.

حاول الباقون الالتفاف، لكن (كاليسا) أغلقت قبضتها، فانكمش الفراغ من حولهم، وتحول إلى سجن طاقي.

- لا أحد منكم سيقترب.

ثم ضربت السجن بيدها، فانهار، وتلاشت الأجساد دفعة واحدة، ثم عاد البحر ساكنًا، كأن شيئًا لم يكن.

تنفس (صالح) بعمق، ونظر إليها بدهشة:

- بدأنا الحرب من أول الرحلة مبكرا.

- الزئبق الاحمر سيسبب لنا مشاكل كثيرة، رغم فوائده الأكثر.

- إنتِ كنتِ تعلمين أنهم لن يغرقونا؟

نظرت إلى القارب تحت قدميها، ثم إلى البحر، وقالت بهدوء واثق:

- قارب (زجار) لا يغرق.

- ومعنا السيف البتار

تحرك القارب من جديد ثابتًا، والزئبق الأحمر يلمع في الظلام، وقد صار معلومًا أن رائحته ستجلب ما هو أسوأ.

(١٩)

كان القارب الهوائي يشق البحر بثباته المعتاد، لكن السكون هذه المرة كان مخيفًا، سكون ما قبل الهجوم، وفجأة، انفتحت صفحة البحر دفعة واحدة، لا في دوائر متفرقة، بل في صف كامل، كأن البحر يفتح فمه، وخرج فوج كامل من الكائنات الشيطانية، أجساد ضخمة، متماسكة أكثر من سابقيها، عيونهم متقدة، وحركتهم منظمة، ليست عشوائية؛ أحاطوا بالقارب من كل الجهات، دون أن يلمسوه، ثم خرج صوت قائدهم، أجشّ ساخر، وتلته أصوات من معه:

- جئنا في الوقت المناسب.

- قبل أن تحصلا على الحصان من الملك (جلمود) بما لديكم من الزئبق الأحمر.

- وقبل أن يسلم العهد من (إبليستار) أيضا بالزئبق، فنحن أولى به.

- قبل أن تزدادا قوة.

صرخ (صالح): أهم يعلمون ما سيكون في القادم؟.

أجابت (كاليسا) دون أن تلتفت إليه: نعم يعرفون، وجاءوا ليمنعوه.

تقدم القائد خطوة، وانحنت الكائنات خلفه كأنها جيش:

- الزئبق الأحمر لنا.

- سلماه، ونُنهي الأمر سريعًا.

ابتسمت (كاليسا)، لكن ابتسامتها هذه المرة لم تكن باردة؛ كانت ابتسامة حرب: لا.

ساد صمت ثقيل، ثم ضحك القائد ضحكة مشوهة: إذن نمزقكما، ونأخذه.

خطت (كاليسا) إلى مقدمة القارب، فرفعت رأسها، ونادت بصوت اخترق البحر: يا (زجار) بحق سلطانك أستدعيك.

اهتز البحر اهتزازًا مزلزلاً، البحر الهادئ أصبح له موجًا كالجبال، وسيطرت الرهبة؛ فجاء صوت (زجار) صارمًا حاسمًا: لك ما طلبتِ...

وفجأة، اهتز البحر بقوة، وانكمش الأفق، وكأن المسافة تقلصت، وظهر في الافق عملاق وبيده سيف بتار، يقذف أشعه حارقة على الكائنات العملاقة.

لم تتراجع (كاليسا)، بل مدت ذراعيها، فانفجر وميض أزرق داكن، أقوى وأكثف من المرة السابقة، تحولت طاقتها إلى سلاسل ضوئية، واندفعت من حول القارب، تقيد الكائنات واحدة تلو الأخرى. وأيضا (صالح) وجه سيفه وأخرج أشعته الحارقة، ومعهما فارس (زجار) بسيفه يرسل الأشعة الحارقة، والبحر نفسه ثقل عليهم، كأنه يعترف بسلطانها، مع المارد فارس (زجار) حاولوا المقاومة صرخ قائدهم:

- اقتلوا الجنيّة! الزئبق معاها.

استدارت إليه (كاليسا)، وعيناها تشتعلان، ثم قبضت يدها، فانفجرت السلاسل، ومزّقت الأجساد الشيطانية، ونظر فارس (زجار) ذلك المارد الجبار، وقال: هذه أول مرة يتم الاعتداء على مستخدمي بحر الملك (زجار)، والسبب الزئبق الاحمر الذى معكم، مع ضوء الصباح تكونا قد وصلتما وأنا معكما لن أتركما، فالضوء معناه أنكما خارج نطاق بحر (زجار).

(٢٠)

لفظ القارب (صالح) و(كاليسا) خارج البحر، وجدا نفسهما على الشاطئ على طريق كبير ممتد بمحاذاة الساحل، كانت السماء بلونها الأحمر الفاتح مع بداية ضوء النهار الوردي، فلا شمسَ في العالم السفلي؛ وإذا بهما أمام قصرٍ عملاق شاهق، بوابته عريضة تمتد على مرمى البصر، بارتفاعٍ هائل من الفولاذ، تتدلى عليها أشكال كثيرة، برؤوسُ جان وشياطين، كأنها إنذار وتهديد لكل من يقترب منه.

قالت (كاليسا): خلف هذه البوابة وادي الرمال المتحركة، من يقع فيه ينتهي، ويغوص حتى يصل إلى الحمم البركانية.

فقال (صالح) بلهجة حاسمة: إنه سيموت من فوره قبل أن يصل إلى البركان.

وتابعت (كاليسا): لذلك وضع الملك (جلمود) ثمناً باهظا بل مستحيلا لاستخدام الحصان المسحور لعبور الوادي؛ فرد (صالح): هل يريد جواري أيضا مثل (زجار).

قالت (كاليسا): لا، بل يريد أن يقدم له ضحية من الإنس أو الجان.

رد (صالح) ضاحكا: إذن ضحية يعنى جارية.

ردت (كاليسا): انتظر لتسمع، ليست محظية، وليست أنثى، بل ذكر كان أو أنثى، ليَمتصّ دماءها.

هنا صرخ (صالح): "يا سنة سودة"! مصّاص دماء؟! ومين الذي سيوافق؟.

قالت (كاليسا): أرأيت الحروب التي خضناها من فوق ظهر العنقاء؟ كل هذه الحروب لها ضحايا، ولها أسرى، لذلك يستخدمونها لمصلحتهم، فالذي يريد أن يعبر من هنا للوصول لممالك الشيطان، يكون معه أسرى حروب، لتقدم مقابل الحصان ليعبر به.

سكتت للحظة، ثم أردفت: كما يقدمون أسرى من النساء للملك (زجار) من أجل عبور بحر الظلام.

قال (صالح): كذلك الزئبق الأحمر الذي أحضرته لنا ساعدناجداً، وجعل مشاكلنا لا تذكر.

ضحكت (كاليسا) وقالت: الزئبق الأحمر أغلى وأهم من الأسرى، وأصعب في الحصول عليه، كما حدث معنا، أنسيت ما حدث؟ الحرب مع المارد حارس التابوت؟

ثم تابعت وهي تضحك: وبالنسبة ل(زجار) وكل الجان، هو أهم من الدماء، ومن الجواري، ومن الأرواح، لأنه يعيد الشباب.

اقتربت منه وهمست مازحة: أتعرف معني أنه يعيد الشباب؟ عندما تكبر في السن ستعرف كلامي، وتتمنى لو أن الشباب يرجع.

ضحكا معاً وقال (صالح): أعرف جيداً، عموما الشباب هو صديق متعجل سريع الانصراف، ماذا سيحدث الآن؟.

(كاليسا): سيفتح الباب الآن، وسيعلمون بوجودنا من الطائر الخباص.

(صالح): ما هو الطائر الخباص؟.

(كاليسا): الطائر الخباص هو الطائر الذي يخرج ويتلصص على الاخبار، وينقل أخبار من ينتظرون أمام البوابة إلى الداخل، ويخبر رجال الملك (جلمود) فقط بمن ينتظر.

(٢١)

فجأة، انفتحت البوابة العملاقة، وأحدثت صريرا مزعجا كأنه انفجار كبير، وخرج منها عشرة من المردة الأشداء، كائنات عملاقة، جسدها من نار محترقة، وجلدهم أسود، وعيونهم تتوهج باللون الأحمر الدامي، وأنيابهم بارزة كالسيوف، يرتدون دروعاً من الفولاذ، ويحملون رماحاً طويلة تنبعث منها دخان كبريتي، تقدموا نحو (صالح) و(كاليسا) بخطى ثقيلة ثابته تهز الأرض هزاً، فأحاطوا بهما في دائرة.

توقف قائدهم، وهو أكبرهم حجماً، له قرنين ملتويين، وقرن ثالث في منتصف الجبهة، وقف أمامهما مباشرة، ونظر إليهما بعيون فاحصة؛ كأنه يقيم فريسة، ثم زمجر القائد بصوت يشبه هدير بركان:

- من أنتما؟ الطائر الخباص أخبرنا بوصول غريبين على الشاطئ، بدون أسرى ولا ضحايا مرئية، هل جئتما لعبور الوادي؟ أم للموت في الرمال؟ ومن منكما الضحية؟.

شعر (صالح) بتوتر يعصر قلبه، لكنه وقف شامخاً، يمسك بيد (كاليسا) ليستمد منها شيء من القوة فهي جنيه مثلهم.

همست (كاليسا) في أذنه بسرعة: دعهم يرون الزئبق، هو مفتاحنا.

أخرج (صالح) القارورة من جيبه، تلك القارورة الحمراء الدامية التي تحتوي على الزئبق الأحمر النقي، ورفعها عالياً ليراها الجميع، توهجت القارورة في الضوء الوردي الخافت، كأنها قلب نابض من سحر قديم.

صمت المردة، وعيونهم اتسعت دهشةً وطمعاً، فهم يعرفون الزئبق الأحمر جيداً ويحلمون به، ويتمنون تذوقه، فصاح القائد: الزئبق الأحمر! هذا، هذا أغلى من ألف أسير! أهلا بكما.

ابتسمت (كاليسا) بثقة، وقالت بصوت عالٍ: نقدمه ثمناً لاستخدام الحصان الطائر المسحور، نريد عبور الوادي بسلام، ونريد الحصان يستمر معنا لما بعده من بوابات؛ فأمامنا سفر كبير حتى وادى الموت.

نظر القائد إلى رفاقه، ثم أومأ برأسه ببطء: الملك (جلمود) يسعده مثل هذا الثمن الذى لم يأت به أحد قبلكما، إنه الأمل المنشود، والحلم المستحيل، ادخلا؛ سنأخذكما إلى الحظيرة السحرية.

فتح المردة طريقاً، ودخل (صالح) و(كاليسا) خلفهم عبر البوابة العملاقة، التي تتدلى عليها تلك الرؤوس المرعبة كإنذار أبدي، سارا في ممر طويل، على جانبيه الحرس المدجج بالسيوف والرماح، قامات عملاقة، وجوه تشع رعباً، إلى أن وصلا القصر.

دخلا القصر، فوصلا إلى صالة الحكم، حيث يجلس الملك (جلمود) على كرسي الحكم وأثار الزمن عليه، أشيب الرأس بظهر محنى، نظر (جلمود) شذرا إلى (صالح) و(كاليسا) وصاح بشدة:

- أيهما الأسير؟ أرجو أن تكون الفتاة، إنها رائعة الجمال، والجسد ناري، وستكون محظيتي.

هنا صاح القائد في سعادة: معهما هدية أهم منها، لم يقدمها أحد من قبل يا مولاي.

صاح الملك: وما هي هذه الهدية؟

صاح القائد بسعادة: قنينة زئبق أحمر.

صاح الملك (جلمود) في سعادة: الزئبق الأحمر؟، هل أنت جاد؟ واثق من هذا؟.

- نعم يا مولاي، إنها المفاجأة، أجمل مفاجأة لك يا مولاي، فالشباب سيعود.

- أين هي الهدية؟ هات بسرعة.

فقال القائد: إنهما يريدان الحصان حتى وادى الموت، وليس وادى الرمال فقط.

فرد الملك: أرى أولا، لا أثق، فالزئبق عزيز وجوده.

مد (صالح) يده بقنينة الزئبق؛ فخطفها الملك (جلمود) من يد (صالح)، وابتلعه في لمح البصر، وأحس بأشياء تدب في جسده، وإذا بظهره يستقيم، ويحس بقوة تسرى ببدنه وقد اسود شعره ولحيته، وقوى نظرة وكل شيء أصبح واضحا أمامه، هرع إلى المرآة التي بجانبه، وتعجب من السرعة والنشاط في الحركة، فوجد شاباً يافعاً أمامه في المرآة، صرخ فرحاً وهو يقفز نشوة.

قال الملك بسعادة: كل ما يطلبانه مجاب، فالزئبق كلمة سرهم.

أخذ يقهقه في سعادة، وذهب (صالح) و(كاليسا) مع القائد ورفاقه إلى حظيرة واسعة، حيث يقف الحصان المسحور، كائن أسود لامع بجناحين هائلين يتوهجان بضوء أزرق خافت، عيونه ذكية كعيون تنين، مربوط بسلسلة من نار لا تحرق، فركب الزوجان الحصان، ومع رفرفة جناحيه القوية، انطلقا خارج الحظيرة والقصر محلقاً في الفضاء.

(٢٢)

طار الحصان بهما فوق وادي الرمال المتحركة الحمراء، فهو يعرف الطريق جيداً، وقد قطعه مرات ومرات لا تحصى بمن يريدون العبور، تتحرك أسفلهم الرمال المتحركة كأفعى عملاقة جائعة، تنتظر من يسقط فيها، لتبتلعه ولا تستطيع الوصول إليهما.

همست (كاليسا) وهي تضحك: نجحنا يا (صالح).

انطلق الحصان الطائر المسحور بقوة هائلة، جناحاه الأسودان اللامعان يرفرفان بسرعة تجعل الهواء يصفر حولهما، حاملاً (صالح) و(كاليسا) عالياً فوق وادي الرمال المتحركة، كانت الرمال أسفلهم حمراء متوهجة، كأنها بحر من الدماء الساخنة، تتحرك بعنف، وتغلي بفقاعات تكشف عن وميض الحمم البركانية تحتها، جاهزة لابتلاع أي شيء يسقط فيها.

أمسك (صالح) بزمام الحصان بيد قوية، بينما احتضنت (كاليسا) خصره من الخلف، صاح (صالح) ضاحكاً: يا (كاليسا)، أرأيت هذه الرمال إنها تبدو كوحش حي! لو وقعنا، سنغوص ونصل إلى الحمم في ثوان!.

ابتسمت (كاليسا): لن نقع، فالحصان معتاد على هذه الرحلة.

فجأة، اهتزت الرمال بعنف، وبدأت تتصاعد أعمدة رملية عملاقة كأنها أيدٍ غاضبة، ومن بين الرمال، انبثق مردة شرسة، كائنات نارية هائلة، جسدها كالصخور البركانية، عيونهم حمراء ملتهبة، وأذرعهم الطويلة تمتد نحو السماء محاولة الإمساك بالحصان.

زمجر أحد المردة بصوت يهز الوادي: نريد الزئبق الأحمر! وإلا سنسقطكما ونأخذه من جثثكما!.

ألقى مارد آخر رمحه الناري نحو الحصان، فانحرف (صالح) بالحصان بسرعة، والرمح مر قريباً جداً من (كاليسا).

صاحت (كاليسا):هم حراس الوادي السريين! الطمع في الزئبق جعلهم يخونون أوامر (جلمود)!.

استخدمت (كاليسا) سحرها، فخلقت أوهاماً من طيور نارية تشتت المردة، بينما أمر (صالح) الحصان بالارتفاع أكثر، لكن ماردا آخر قفز عالياً، ومد ذراعه الملتهبة وكاد يمسك بساق الحصان!.

رفع (صالح) يده بالسيف، وضربه؛ فسقط المارد وتبعه غيره؛ فعالجه (صالح) بضربه أخرى، وفتح نيران السيف على المردة.

في اللحظة الأخيرة، رفرف الحصان بقوة أكبر، مُطلقاً صهيلاً يشبه زئير تنين، وانطلق أسرع نحو نهاية الوادي، تاركاً المردة يغوصون مرة أخرى في الرمال بعد قتلهم بالسيف وسحر (كاليسا).

تنفس (صالح) و(كاليسا) بعمق، وهما يقتربان من الفتحة الآمنة في الأفق، فقالت (كاليسا) مازحة رغم الخوف: هذا الزئبق نعمة ونقمة، لكن الأهم، أننا تخلصنا منهم!.

كان في الأعماق، صوت زمجرة المردة يتردد: سنلحق بكما عند الملكة (إبليستار).

فصاحت (كاليسا): جنودك خانوك يا (جلمود) ويريدون سرقة الزئبق؛ أين الامان؟.

فجاء صوت يهز الوادي: إنها نهايتهم، فلا تخافي.

وفجأة ظهر في الأفق القائد ومعه مجموعة مردة يمتطون الجياد وبيدهم سيوف، وفي لمح البصر اختفى المردة الخائنون، ونزل الحصان ب(صالح) و(كاليسا) أمام باب مملكة (إبليستار).

(٢٣)

نزل (صالح) من فوق ظهر الحصان، هو و(كاليسا) وهو في حالة اندهاش وعدم استيعاب لما يحدث له، ربت على ظهر الحصان، كيف يكون مصنوع من الخشب، ويطير ويحاور ويفعل كل هذا، وما هذه الذى يحدث له؟ في أول مانعان فقط يحدث هذا، وما زال الطريق طويلا، نظر إلى (كاليسا) وهو يعلم جيدا أنها تعلم كل ما يفكر فيه ويدور بعقله فهذه قدراتها، ربما تقرأ عينيه، أو تدخل إلى أعماقه، أو تعيش داخل عقله.

ضحكت (كاليسا) بصوت مرتفع مما أدهشه، إنها أول مرة تضحك بهذا الصوت، فنظر إليها باسما، وكانت البسمة تنم عن السؤال الذى بداخله فقالت:

- لا تحمّل نفسك أكثر من طاقتها، ودع الخلق للخالق كما تقولون.

فرد (صالح): ما يحدث لى كتير.

هزت رأسها: إنها أقدار.

(صالح): كم يوم مر عليّ في عالمكم.

- اليوم أتممت الشهرين، وما زال أمامنا الكثير والكثير جدا.

نظر إليها، وقبل أن يسألها، ضحكت وقالت: أعرف مرادك، تريد النوم لتستريح، وأيضا الطعام.

رد عليها ضاحكا: نعم.

فقالت: وماذا تريد أولا؟

وقبل أن يجيب، وجد أمامه طعاما شهيا؛ فضحك وقال: نعم، أنت لست في حاجة لسؤال.

فضحكت: لكنى أحب سماع صوتك.

ما إن انتهى من الطعام، حتى وجد سريرا وثيرا داخل خيمة سوداء تحجب الضوء، فدلف إليها، وراح في نوم عميق.

(٢٤)

استيقظ (صالح) وكانا قد دخلا في اليوم الثاني، لقد نام يوماً كاملًا من التعب والصراع الذى دخله مع الجان، لحماية ما لديه من زئبق، فلو خسره لانتهت رحلته، ولم يعد يملك ثمن المرور من البوابات.

ابتسمت (كاليسا) سعادة باستيقاظه وقالت: أعتقد أنك أخذت قسطاً كبيراً من الراحة، وأنا لم أحاول إيقاظك، بل وهيأت لك الراحة.

- أشكرك يا حبيبتي على كل ما تقدمينه لي، أشياء لا يمكن تقيمها، فهي فوق مستوى التقييم.

- أنت زوجي وحبيبي، أعتقد أنك تريد الطعام والشاي.

ضحكا، وأحضرت له الطعام والشاي، وبعد الأكل نظر إليها وسألها: وماذا عن (إبليستار) ومانعها الذى أمامنا؟.

هزت رأسها بما يعنى الكثير، وإن هذا المانع جد خطير، وقالت:

- كل شيء يتبع (إبليستار) يلخّصها ويدل عليها، أولا فأسلوبها أسلوب حية، وهي تحب أن تتشكل على شكل حية عملاقة، وهذا البحر الذي تمتلكه وهي مليكته لا يوجد به سمك ولا أي أحياء مائية؛ بل حيات وثعابين، أما عنها فاسمها يكفى لتعرف منه من هي، فاسم (إبليستار) من (إبليس) ولها أسماء أخرى كثيرة أهمها، (إبليستار) و (ليليث)، وهي أسماء زوجات (عزازيل) فهي كانت زوجة ل(عزازيل).

رد (صالح) في شبه صراخ: "يا سنة سودة"، زوجة (عزازيل).. يعنى زوجة (إبليس)! يعنى سنقابل زوجة إبليس وجها لوجه؟؟

ردت (كاليسا) ضاحكة: نعم، وهى ليست بالسهلة، ودائما تخلف اتفاقاتها، بل وتخون، فالخيانة تسرى في دمها.

رد ضاحكا: بالتأكيد قد مكرت على إبليس نفسه، فكيف لا تمكر علينا؟...

ردت ضاحكة: بالتأكيد، بدليل "إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ".

ضحك قائلاً: أتقوليهنا بنفسك؟ هذا اعتراف...

فضحكت قائلة: الحوار يحكم يا حبيبي...

ابتسم هازًا رأسَه مما يحدث له: عمرى ما فكرت ولم يخطر ببالي أن يحدث لى هذا.

- عموما كما تقولون "شر البلية ما يضحك".

فضحكا معا، ونظر إلى مملكة (إبليستار) وسورها الممتد أمامهما المصنوع من الصخور ذات الأحجام الكبيرة، والبوابة الفولاذية الضخمة التي تمتد أمامهما على مرمى بصرهما، وقبل أن يتحدثا عن السور، ومن خلفه وكيف يدخلان المملكة، وقفت (كاليسا) ووجهت يدها تجاه البوابة، وأرسلت حزمة من الأشعة تجاه البوابة؛ فارتطمت بها، وأحدثت دويا عاليا، وصاحت بصوت زلزل المكان: يا (إبليستار)، أيتها الملكة المتوجة، يا زوجة (عزازيل)، نريد المرور.

فجأة، ارتجّت الأرض، ودوّى صريرٌ معدنيٌّ، كأن الجبال تُسحب من جذورها، البوابة الفولاذية المرتفعة، انشقت صفائحها السوداء ببطء، وبدأت تنفصل عن بعضها، وخرج من خلفها وهجٌ أحمر قاتم ذو دخان أحمر يحجب الرؤية تماماً، ومن قلب هذا الدخان ظهرت (إبليستار) بنفسها، وليس ظهور الحرس

أولا كما حدث في كل مملكة رآها، لم تكن تمشي، بل تمتطي تنينًا عملاقًا، جلده كالفحم المشتعل، وعيناه كجمرتين لا تنطفئان، أجنحته حين انفتحت حجبت السماء، فخيم الظلام فوق البحر.

كانت (إبليستار) شديدة الحُسن، جمالٌ جارح، وجهٌ ملائكي، لكن خلفه ألف خيانة، وشعرها الطويل يتطاير كأنه أفاعٍ من دخان، وحولها حرس لا حصر له من الحيات.

فزع (صالح)، وارتعدت فرائصه، أكل هذه حيات وثعابين عملاقة بخلاف التنين الذى تمتطيه (إبلستار)؟ إنه يخاف من الثعبان الذى كان يراه في القرية، وطوله لا يزيد عن نصف متر، ويفر من أمامه رجال بشوارب، فجأة يرى كل هذا الرعب؟.

أحست (كاليسا) ما يدور بعقلة؛ فوضعت يدها على كتفه، وربتت عليه، وكأنها تقول له: لا تخف. وأشارت (إبليستار) لهما وقالت بصوتٍ دوّى كالزلزال:

- أنا (أبليستار) ملكة هذا البحر، أتعرفون من هي (إبليستار)؟. إنني زوجة (عزازيل)، يوم كان سيد النار، وقبل أن يخونه الجميع.

شدّ (صالح) قبضته على السيف المسحور، بينما همست (كاليسا): إياك أن تتهور أو تنخدع، هي لا تنقض عهدها فقط، هي تصنع العهد لتكسره.

هبط التنين عند حافة البحر، فهاجت الأمواج، وخرجت الثعابين والحيات بأجسادها الهائلة، تلتف حول بعضها كأنها جدار حيّ، فرفعت الملكة يدها، فصمت الجميع وحل السكون، وانشقّ الهواء من حولهما، ثم صرخت بغضبٍ كشف وجهها الحقيقي: لن يمرّ أحد فوق بحري حيًّا!.

زأر التنين الذي تمتطيه، وفي اللحظة نفسها خرجت تنانين سوداء من قلب البحر، أجسادها تقطر سمًّا، وأجنحتها تُمزّق الهواء.

نظرت (كاليسا) إلى (صالح) وقالت مسرعة: لا نستخدم المركب، فالبحر بحرها، لكن السماء لنا.

وقفت (إبليستار) أمامهما، تتكئ على رمحٍ من نار، وخلفها البحر الأسود يعجّ بالحيات والثعابين، ثم قالت بصوتٍ واثق: المركب جاهز، ومن يرفضه، يبتلعه البحر.

ردّ (صالح) بهدوءٍ حاد: لن نركب مركبك.

رفعت حاجبها بدهشة ساخرة: وكيف ستعبران؟ هل ستطيران؟.

وضعت (كاليسا) يدها على عنق الحصان المسحور، وقالت بثبات: نعم سنطير، فمعنا حصاننا ويعرف السماء أكتر من بحرك.

ضحكت (إبليستار) ضحكة قصيرة مليئة بالاحتقار: السماء فوق بحري، فهي ملكي أيضاً.

قال (صالح) وهو يخرج قنينة الزئبق الأحمر: نحن لا نطلب أكتر من عهد، تأمّني عبورنا فوق البحر، والقنينة تصير لك بعد أن نصل.

رفعت (ابليستار) للحيات والثعابين يدها، فسكنت التعابين في الحال، ثم حدّقت (إبليستار) في القنينة، وعيناها قد اشتعلتا طمعًا؛ فقالت ببطء، وهى غير مصدقة ما تراه: الزئبق الأحمر، هذا حقيقي.

(كاليسا): نعم، وسيعيد لك شبابك، ويقضى على الشيخوخة التي تفشت بجسدك، وأثارها على وجهك.

صاحت (إبليستار) غاضبة: خسئتِ، انا ما زلت شابة، أنتِ ابنه (راكادور) الذى يتقمص دور الملاك.

- نعم أنا ابنته، إذاً أنتِ لا تحتاجين للزئبق.

صاحت (إبليستار): لعنة الله عليكِ، وعلى لسانك الذى يجب أن يلتف حول عنقك. أحتاجه كما تحتاجان لعبور بحرى.

(صالح): إذاً نعبر وتكون القنينة لكِ.

(إبليستار): أعاهدكما باسم النار الأولى ألا يمسّكما سوء، أعطني القنينة.

تبادلت (كاليسا) و(صالح) نظرة سريعة. فقال (صالح): لا، القنينة بعد الوصول.

ردت (إبليستار): ألا تثقان بي؟

(كاليسا): نثق بك بالتأكيد، لكن هذا طلبنا، وهذا اتفاق.

هزت (إبليستار) رأسها موافقة، وأخلت للحصان الطريق، وأمرت الحرس بالمتابعة بالمركب خلف الحصان، لاستلام القنينة.

قفز (صالح) و(كاليسا) على ظهر الحصان، فانطلق الحصان وفرد أجنحته، واخترق السماء فوق البحر.

(٢٥)

فجأة، في منتصف البحر، انقلب لون الماء، وارتفعت الحيات دفعة واحدة؛ فضحكت (إبليستار) من بعيد: الآن العهد انتهى!.

صرخت (كاليسا): غادرة!.

اندفعت تنانين البحر من الأعماق، تنفث ناراً سوداء تحرق الهواء، فصرخ (صالح) وصاحت (كاليسا): اثبت يا (صالح).

انحنى الحصان بمهارة، ودار في الهواء، وارتفعت سرعته كأنه سهم نور، فرفع (صالح) السيف المسحور، وضرب أول تنين، فانشطر نصفين وسقط في البحر، مدّت (كاليسا) يديها، وردّدت تعويذة قديمة، فتحوّل الهواء حولهم إلى جدار نور صدّ السمّ والنار الخارج من التنانين؛ فاندفع تنين ضخم من الخلف، فقفز الحصان، واستدار في الهواء، وغرس (صالح) السيف في عينه.

زأر التنين وسقط، وتبعته بقية الكائنات، وكأن البحر نفسه انهزم، فتراجع صراخ (إبليستار) وسكنت الأمواج.

(٢٦)

على الضفة الأخرى، هبط الحصان بسلام، فتنفّس (صالح) بعمق، وقالت (كاليسا) بصوتٍ متعب: قد مررنا.

استدار (صالح)، وأخرج القنينة، ونادى بأعلى صوته: (إبليستار)، يا زوجه ابليس، ايتها الخائنة، هذه القنينة لكِ، انا عند عهدي، انتِ فقط من تخون العهود.

صرخت (إبليستار)، على الحرس، فظهروا فور صراخها، وقذفها (صالح) نحو الحرس؛ فالتقطوا القنينة قبل أن تلامس الماء، ضحكت (إبليستار) ضحكة هزت المكان، وقالت بصوتٍ حاقد: ربحتُم العبور، ونجوتم بباقي الزئبق.

ردّ (صالح) وهو يدير ظهره: من يغدر لا يستحق غير الهزيمة.

انتهى البحر خلفهم، وكان على الشط الاخر للبحر أرض واسعة جرداء حجرية ملساء، فعبرا، وانتهى بحر (إبليستار)، وراح المانع الثالث إلى غير رجعة وإلى الأبد؛ لتبدأ أول بوابة لأول مدينة بعد الانتهاء من الموانع الطبيعية.

(٢٧)

جلس (صالح) و(كاليسا) للراحة من عناء صراع أفاعي (إبلستار)؛ فصراع الحيات يهد النفس قبل البدن، لأن اللمسة تؤدي للموت؛ فرفع الصراع عنده الأدرينالين لأعلى مستوى مما يهد النفس؛ فنظر ل(كاليسا) قائلا: أحس أنني أعيش كابوساً ثقيلاً، صراع الحيات هدني نفسياً، وما زلنا لم نصل نصف الطريق.

قالت (كاليسا) بهدوء محاولة دعمه نفسياً: لقد عبرنا الموانع الصعبة، ولم يبق سوى المدن، وتحتاج إلى العقل قبل القوة، وما نملكه من زئبق. فهل أنت في حاجة للراحة أم نتحرك؟.

- قليل من الراحة مع وجبة دسمة.

- لك هذا، أنظر أمامك.

نظر؛ فإذا بوليمة كبيرة عبارة عن صينية أرز فوقها فخذة ضانى، وهي الوجبة التي يعشقها؛ فضحك كثيراً، وقال لها: تعرفين ما أحب، وكنت أكلها دائما أنا وصديق عمرى العمدة (إبراهيم) الرفاعي، لقد ذكرتني به بهذه الوليمة.

ضحكت وقالت: قريبا تعود إليه بالأولاد، تناول طعامك واسترح، وغدا نبدأ.

نظر فإذا بالخيمة والسرير الوثير، وجدا في لمح البصر، فقال لنفسه: هذه ميزة أن تتزوج جنية، فلا يوجد مستحيل.

ابتسمت، ونظرت إليه، فعرف أنها سمعته، فقالت: شفت فوائدي كثيره جداً ولا مستحيل.

فضحك، وأقبلا على الطعام.

(٢٨)

استيقظ (صالح) فوجد (كاليسا) بجواره، وقد جهزت له الفطور، فتناوله في سعادة، وناولته كوب الشاي، وقالت له ضاحكة: "خد احبس".

شرب الشاي، وقاما ركب (صالح) الحصان المسحور، وسيفه البتّار المسحور معلق في وسطه، وركبت خلفه (كاليسا)، هالتها متلألئة، حتى الهواء حولها يرتجف من قوتها، وانطلقا والحصان يأكل الارض أكلا، وعلى بعدّ مسيرة يوم ظهرت المدينة الأولى.

وقفا على بعد ليس بالقليل، وجلسا ليستريحا، ويتناول بعض الطعام؛ فقد أمضيا يوما كاملا للوصول للمدينة، وبعد الانتهاء من الطعام وقسط الراحة، نظر (صالح) يتأمل البوابة التي أمامهما.

بوابة هائلة منحوتة في قلب جبل عملاق، أنها المدينة الأولى، المدينة المتحجرة، جدران صخرية سوداء لامعة، متصلة بالجبل اتصال اللحم بالعظم، والبوابة كأنها ليست بابًا، بل وجهًا نائمًا،

بلورات حمراء خافتة تومض في الشقوق، ضوؤها أحمر غامق شديد التوهج، يشبه دمًا توقف عن الجريان منذ قرون.

رفعت (كاليسا) يدها ببطء، وانطلقت هالة أشعة خضراء خافتة، لم تضرب الصخر، بل قل أيقظته، اهتزّت البوابة، وتحرّك وجه عملاق منحوت فيها، عينان حجريتان انفتحتا ببطء: من أنتما؟. جاء الصوت من داخل الجبل، غليظًا، كأن الصخور نفسها تتكلم.

فردت (كاليسا): جئنا للعبور فقط.

- المدينة لا تُفتح إلا بثمن.

تقدّمت (كاليسا) و(صالح) تجاه البوابة أكثر، وقالت: أنا (كاليسا)، جنية، ابنة الملك (راكادور)، جلبتُ هذا الإنسان من عالمه العلوي، لنسترد أبناءه المخطوفين من وادي الموت.

- ليكن، وما الثمن؟.

فرد (صالح): نحمل لملككم هدية عظيمة هو يتمناها، ولكنه لا يستطيع الحصول عليها.

- ماذا تقول أيها البشرى الطيني؟ كيف للملك ألا يستطيع فعل شيء؟، هل جننت؟.

(صالح): إنها هدية خيالية تعيد إليه شبابه.

- تعيد الشباب؟ وما الذى يعيد ما ضاع وخصوصا الشباب أيها الأبله؟

(صالح): إنه الزئبقً الأحمر.

ورفع (صالح) قنينة الزئبق الأحمر للحظة واحدة فقط، جعلت الجبل يشهق، والبلورات توهجت أقوى.

سكت الصوت لبرهة ثم قال: إنه حقيقة، لقد اهتز الجبل من بريقه، أدخلا معًا؛ فالهدية تفتح الباب، لكن المدينة لا تضمن النجاة.

انشقّت البوابة ببطء، شقًا يكفي لعبور الحصان وراكبيه، وأغلق خلفهما الباب، فلا رجوع، فهنا لا عودة، أما العبور أو الموت.

همست (كاليسا) ل(صالح): من هنا فصاعدًا، السيف لن يكون سلاحك الوحيد، بل حكمتك، وصبرك.

اندفع الحصان إلى الداخل، وابتلعهم الظلام، وأُغلقت البوابة خلفهم، وكأنها لم تكن.

(٢٩)

داخل المدينة المتحجرة خطا الحصان ببطء على طريق منحوت في الصخر، فالهواء ثقيل مشبع بغبار حجري رائحته عليها رائحة الزمن، وأمامهما هلت قاعة واسعة، سقفها عالٍ تناطح السحاب، فهي فوق جبل شاهق، والطريق على جانبية حرس، وكأنهم تماثيل من حجر، كل شيء متحجر هنا، ومن حوار الحارس فالقلوب هنا متحجرة.

دخلوا القاعة في حراسة مشددة، وجدوا في وسطها، عرش من صخر أسود، وعليه الملك، طاعن في السن، جسده متهالك، عيونه بلورات حمراء، وقف ببطء مؤلم، كأن كل حركة تكسر عظمًا داخليًا، وصاح بهم، وكأنه لا يصدق ما يحملانه، ولم يصبر عليهما حتى يجلسا، فقال: أين الهدية؟.

أعطى (صالح) القنينة للملك بيد مرتعشة من الموقف والمباغتة، وشكل الملك المتحجر المخيف، انبعث منها ضوء أحمر دافئ، انه ضوء الزئبق يتدفق كدم حي، خطف الملك القنينة وسكبها في فمه في ثانية واحدة، وإذا بجسده يرتجف، الشباب بدأ يتسلل إلى ملامحه، الشباب يعود، بدأ يحس بقوة

تضرب في أوصاله وتعود اليه، وجد نفسه يفرد قامته، ومد زراعيه إحساسا بالقوة، صرخ من فرط السعادة: عاد الشباب، ورحل الشيب الكئيب، أطلب أيها الانسى؛ فلن أخذلك.

تنهد طويل، كأن الجبل نفسه تنفس الصعداء، لكن عيونه بقيت باردة: لكما العبور من بوابة الدخول، وبوابة الخروج بلا أي مقابل؛ لكن عليكما عبور المدينة وحماية نفسيكما من التحجر.

ردت (كاليسا): نطلب مساعدتك أيها الملك العظيم.

الملك: إنها اللعنة، لعنة (عزازيل)، فعل الفاحشة مع المدينة، وجعلهم يسجدون للحجر؛ فتحجر أهلها، ومن يعود من التحجر إلى حالته الجنية، عليه أن يستقطب غيرة بدلا منه، ويكون من خارج المدينة.

(صالح): إذاً لا نجاة لنا منهم.

قال الملك بصوت منخفض، كأنه يشرح حقيقة لا مفرّ منها: النجاة هنا مش أنك تعبر، النجاة أن تتأخر في التحجّر.

ثم أشار بيده التي تحولت ليد شاب، فانشقّ جدار القاعة من الجهة الأخرى، وظهر ممر طويل، سقفه منخفض وجدرانه

مليئة بتماثيل بشرية متحجرة، وجوهها متجمّدة على آخر صرخة.

قال الملك: هذا طريق بوابة الخروج، كل من عبره قبلكما، تحجّر كما ترون، وتحولوا إلى تماثيل، وصاروا جزءًا من المدينة، الطريق أمامكما، ونجاحكما في أيدكما، ولكما علي عدم التدخل كما حدث مع كل من مروا، بل إن نجحتما، سأفتح لكما باب الخروج، هيا اخرجا.

(٣٠)

تقدم (صالح) خطوة في اتجاه الممر، فشعر ببرودة تزحف في قدميه، كأن التحجر يحاول الصعود في جسده.

همست (كاليسا): اللعنة ستبدأ عندما نترك القصر.

وما إن دخلا الممر، حتى انشق الطريق إلى ثلاثة مسارات متوالية، فالعبور لا يتم إلا من خلالهم جميعا، واحداً تلو الاخر، وكل مسار عليه نقش محفور بعمق.

المسار الأول أضاء بلون باهت، وخرج منه صوت أجش: هذا طريق لا يفتح إلا لمن أنقذ نفسًا من الشر.

توقّف (صالح)، وحدّق في النقش بتمعن، وفجأة، تحول الحجر إلى ما يشبه شاشة العرض، ويعرض عليه فيلما متحركا، نظر (صالح) جيدا فرأى ليل حالك، ومكان مهجور، وفتاة تصرخ، إنها سعاد، وجان أسود يضغط عليها، يمس جسدها، ويضحك، ثم توقفت الصورة.

قال الصوت: أتذكر فعلتك؟.

شدّ (صالح) قبضته وقال: نعم إنها سعاد، زوجة سالم الشايب. الجان كان بداخلها ويراودها عن نفسها، وزوجها استغاث بي ولم أخذله، وأنا من طردت الجني من جسدها، رغم أنه توعّدني.

تحركت الصورة ثانية، الجان يندفع هاربًا، وسعاد تقع باكية، لكن المشهد لم ينتهِ، فقد تحول المشهد إلى بيت (صالح). فشاهد ليل، صرخات أولاده.

قال (صالح) بصوت مكسور: وبسبب ما فعلته، الجان انتقم منى، خطف أولادي إلى وادي الموت، ولذلك أنا هنا.

ساد صمت ثقيل، ثم اهتز المسار الأول، وانفتح ببطء.

قال الصوت: من أنقذ ودفع الثمن، له حق العبور.

لكن مع فتح الطريق، امتدّ خط حجري أسود على ذراع (صالح)، كأنه ندبة.

همست (كاليسا) بقلق: المدينة أعطتك أول شارة للعبور، وهى أيضا ضريبة دفعتها الأن، أن يكون فيك خيط حجري، ربما يزول عند الخروج من البوابة أو لا.

تنفّس (صالح) بعمق، وقال: لو هذا الطريق هو ما يوصلني لأولادي فلا بأس، اعتبرها كما يسمونها عندنا "وحمة".

ابتسم، وكذلك (كاليسا) فأكمل: سأمشي حتى لو تحجرت كلى.

تحرك الحصان داخل المسار المفتوح، والممران الآخران ظلّا مظلمين، كأنهما ينتظران دورهما، ومن خلفهم، جاء صوت الملك كهمس شيطاني: هذا أول اختبار، وما زال في المدينة من يطلب أكثر.

ما إن أكمل الحصان خطواته داخل المسار الأول، حتى تشقّق الصخر فجأة أمامهما، وانغلق الطريق الأول، وفتح مسار جانبي، جدرانه مغطّاة بنقوش بشر ساجدين، ليس لله، بل لحجر.

قال الصوت الحجري، بنبرة ساخرة: هذا طريق لا يُفتح إلا لمن صنع فتنة، ثم ادّعى أنه حاربها.

تجمد (صالح) في مكانه، فقالت (كاليسا) بهمس: هذا ليس اختبار قوة، إنه اختبار حقيقة.

تحول الجدار إلى شاشة مثل السابق، وظهر فيلما أخر، وتحرك أمامه، صورة قرية، ناس مصطفة، ذكر، وناس تتمايل، ووسطهم سالم الشايب.

قال الصوت: أتذكر هذا؟.

تنفّس (صالح) بعمق: نعم، هذا سالم زوج سعاد.

- بعد موت محروس الضبع زعم أنه ولى.

ظهر سالم، لحيته طويلة، عينه زائغة.

قال الصوت: إنه عمل طريقة ذكر.

- طريقة تقرّب الناس من الله.

- وأسمّاها الطريقة اللحيويّة على اسم جدى، كأنه يقدم رشوة لي كي أسكت.

تحرّك المشهد، الناس تقبل يده، تناديه بالولي، تذبح نذور.

قال الصوت: وأنت ماذا فعلت؟

خفض (صالح) رأسه: وافقت.

- يعني أنك لجأت للسكوت.

- قلت لنفسي ربما تهتدي الناس.

وفجأة، ظهر مقام محروس الضبع، حجر كبير مزيّن، والناس تطوف حوله.

قال (صالح) بصوت أثقل: الفتنة كبرت...

- وانقلبت لشرك...

- وقفت في وجهه.

ظهر المشهد الأخير، (صالح) والعمدة يأمران يهدم المقام، الناس تصرخ...

قال الصوت الحجري: سمحت بالفتنة.

- ثم هدمت رمزها بالقوة.

اهتزّ المسار، وتقدّم حجر أسود، التفّ حول صدر (صالح)، وبدأ التحجّر، لكن هذه المرة من القلب.

قالت (كاليسا) بلهفة: اعترف، لا تدافع عن نفسك.

رفع (صالح) رأسه، وعينيه ثابتتن: أنا أخطأت عندما سكت.

- وأخطأت عندما ظننت القوة علاجا.

- والذي انكسر...

- لم يرجع...

توقّف التحجّر. قال الصوت: هذا الذنب يُمحى بهدم المقام رمز الفتنة

وانشقّ المسار ببطء، لكن قبل أن يفتح تمامًا، انفصل حجر من صدر (صالح)، وسقط على الأرض، إحساس كان يجعله دائمًا يرى نفسه مُصلحا، سقط.

قالت (كاليسا) بصوت مبحوح: المدينة أعطتك صورة البطل.

تنفّس (صالح): ربما هذا الذي يجعلني إنسانا.

(٣١)

انفتح الطريق الثالث، وفجأة، انطفأت البلورات الحمراء، وساد ظلام أعمق من ليل القبور، خطا الحصان خطوة، ثم رفض التقدّم.

قالت (كاليسا) بصوت منخفض: هذا ليس ممر اختبار، هذا ممر إعدام...

انبعث صوت ضحكة مجلجلة، خارجة من قلب الصخور:

- أخيرًا، إنسيّ ومعاه سيف مسحور...

تشكّل الظلام، وتكوّن منه جان، مارد عملاق، جسده دخان أسود متصلّب، قرنان مكسوران، وعين واحدة تتوهج بلون دم فاسد.

قال: اسمي (مِرداس)، كنت من حُرّاس المدينة قبل ما أرفض السجود للحجر.

ضحكت الصخور، فقالت (كاليسا) بحدة: رفضت الشرك، فصرت شيطانًا؟

اقترب (مرداس) خطوة: لا...

وجاء صوت الملك لهما فقط هما من يسمعاه: رجال (عزازيل) قيدوه وسحروه، وكسر القيد يحرره من السحر ويخرجكما، أنا اخترته، وهذه مساعدتي لكما يا (صالح)، اسمع جيدا، حرره يحررك؛ فمدّ (مرداس) يده، فانفجرت الأرض بأشواك حجرية اندفعت نحو (صالح)، قفز (صالح) بالحصان، وضرب (مرداس) بالسيف، أطلق شعاعًا فضيًا تجاه صدر (مرداس).

زأر (مرداس): السيف لا يقتلني!.

اندفع جسده ليتحوّل إلى إعصار دخان، لفّ (صالح) وسحبه إلى الجدار.

صرخت (كاليسا)، وانفجرت هالتها الخضراء لأول مرة، ألسنة نور ضربت الممر.

قالت: (صالح) هوا لا يريد قتالك، بل يريد أن يورّثك تمرده.

فهم (صالح)؛ فثبت قدمه، وغرس السيف في صدره، لكن تفاداها (مرداس).

قال (صالح) بصوت مبحوح: أنا لم أحضر لقتلك، جئت لآخذ أولادي، وأعود.

ضحك (مرداس): والتكلفة؟

اندفع (صالح) للأمام، والسيف يلمع، لكن بدل أن يضربه، شقّ القيود الحجرية التي كانت في ظهره، كما قال له الملك: حرره يحررك.

صرخ (مرداس) صرخة حرية، فتشقق جسده، وتحرّر الدخان، وسقط قرناه على الأرض.

قال (مرداس) وهو يتلاشى: المدينة لن تسامحك، بس أنا سامحتك، فتحت لك الباب. حررتك كما حررتني، انطلق لأولادك.

اهتزّ الممر، وانفتحت بوابة الخروج، نور أبيض ساطع اندفع بقوة، قفز (صالح) بالحصان، وخلفه (كاليسا)، اندفعا نحو النور، والمدينة تصرخ خلفهم، قبل ما تُغلق البوابة، فقال صوت الملك من بعيد:

- عبرتما الممر الأخير، لقد رددت لكما الجميل، فاخرجا بلا عودة.

(٣٢)

طار الحصان بهما، وحلق في فضاء المدينة، يقطعها قطعا للخروج من تلك المدينة الكافرة عبدة الأصنام، واختارا الطيران بالحصان خوفا من أهل المدينة؛ حتى يكونا بعيدين عن أيديهم، وخرجا وأفلتا من التحجر، واختفت علامات التحجر من جسد (صالح) فور عبوره البوابة، وبعد أن غادرا المدين المتحجرة، امتد أمامهما طريق صخري صاعد، ضيق، ملتو، كأن الجبل يختبر من يصعده، وكان من السهل أن يبتعدا عن كل هذه المعوقات التي تجعل الطريق صعب بالحصان، وهنا تأتي مهمة الاختراع الرهيب وهو الحصان، وما يملكه من إمكانيات خرافية لا يصدقها عقل، فكان الطيران هو الحل الوحيد.

وطار الحصان لمده يومين كاملين، تخللهما راحة لمدة نصف يوم نوم وطعام ل(صالح) كالمعتاد، نصبت الخيمة ومدت الوليمة، كان طيران مستمر بلا توقف، وكأن الجان الحجري يلهث خلفهم.

وفجأة، توقّف الحصان دون أمر، فأمامهما ظهر سور هائل من الصخر الأسود، عالٍ إلى حد أن قمته اختفت في الضباب، السور

ليس مبنيًا، بل منحوتًا في الجبل نفسه، كأن المدينة نُحتت بالقوة.

نظر (صالح) إلى السور وتعجب، لماذا معظم المدن منحوتة في الجبال؟، إنها بلا جبال صعبة المنال، فما بالك وقد حصنت خلف الجبال، فتزداد صعوبة ولغزاً بهذا الوضع، أمعن النظر في السور، والبوابة العملاقة التي تتحدى بارتفاعها وفولاذها، وخلفها وخلف السور بدت جبال شاهقة، قممها حادة، وعلى سفوحها غابة كثيفة، أشجارها داكنة متشابكة، وبين الاشجار وتحت جذوعها بيوت تشبه الأكواخ، مبنية على الصخور، ومتداخلة مع الشجر كأنها نبتت معها.

قالت (كاليسا) بصوت خافت: هذه مدينة الغابات.

مدت يدها تجاه البوابة؛ فخرجت حزمة من الاشعة تجاه البوابة؛ فأحدثت صوت فرقعة دوى في المكان، واهتزّ السور وكأنه زلزال، وقبل أن يقتربا خطوة أخرى، انفتحت البوابة الفولاذية الضخمة، صوتها كزئير جبل، وخرج منها حُرّاس الغابة، جان أشداء أجسادهم عريضة، جلودهم داكنة، مدججون برماح وسيوف ثقيلة، عيونهم لا ترمش.

قال قائدهم بصوت أجش: إنسي في أرض الجان؟، هذا إعلان حرب، من أنتما وماذا تريدان..

ردت (كاليسا) نفس ردها في كل مدينة: أنا (كاليسا) ابنه الملك (راكادور)، ونطلب العبور.

الحارس: هل تعتقدان أن العبور سهلا؟ هل معكما ثمنه؟.

(صالح): نعم، ثمن لا يحلم به ملككم.

الحارس: أنت تهذى وتخطئ في ملكنا، وثمن خطأك رأسك.

تقدّمت (كاليسا) بسرعة: نحن نطلب المثول أمام ملككم، فمعنا لجلالته هدية لا تُرد.

ضحك القائد: كل الهدايا تُدفن مع أصحابها.

أخرج (صالح) قنينة الزئبق الأحمر للحظة واحدة فقط، فتوهّج الضوء الأحمر، وانعكس على السور، فارتجف الحجر، وساد صمت ثقيل.

قال قائد الحراس: الملك سمح بالدخول، ولكن تحت الحراسة، وأي حركة خاطئة ستموتان فوراً...

انفتحت البوابة، كشفت عن طريق صاعد داخل الجبل، يقود إلى الغابة، دخل الحصان ببطء، أُغلقت البوابة خلفهم بصوت مكتوم، كأن العالم خلفهم انقطع للأبد.

داخل المدينة، بدأت البيوت تظهر أوضح، أكواخ خشبية بين الصخور، مشاعل، أعين تراقب من بين الأشجار، همسات وهمهمات، كراهية صريحة للإنسي.

قالت (كاليسا) بصوت منخفض ل(صالح): من هذه اللحظة، كل خطوة بحساب.

سارا بين الجبال والغابة، نحو القصر الذهبي حيث ينتظرهما ملك لا يرحم...

(٣٣)

اقتيد (صالح) و(كاليسا) عبر ممر طويل محفور في الصخر، المشاعل على الجانبين تشتعل بنار خضراء، وظلال الحراس الضخام تتحرك على جدران الأكواخ كوحوش صامتة، انفتح الممر فجأة على قاعة عظيمة، سقفها مرتفع جدا، أعمدة ضخمة مكسوة بنقوش قديمة تحكي حروبًا ودماء، وفي صدر القاعة، ارتفع عرش من الذهب الخالص، جلس عليه الملك، جسد هائل، قرنان منحنيان للخلف، عينان ذهبيتان لا ترمشان، وحول العرش وقف حراس أشداء، سيوفهم مسلولة، دروعهم سوداء ثقيلة، دوّى صوت الملك: (صالح)، كيف تطأ أرض الجان؟

تعجب (صالح) أن الملك يعرفه فقال: هل جلالتك تعرفني؟

ضرب الملك الأرض بعصاه: أعرفك يا إنسي، أنت قاتل جنية البئر، وبدمها فتحت حربًا لم تنتهِ.

رفع (صالح) رأسه بثبات، ولم يحاول الانكار، لأن هناك اشياء يعرفها الجآن، والإنكار خطأ فلم يحد غير الدفاع عن نفسه، فقال: قتلتها لأنها قتلت زوجتي، وكانت تقتل الأبرياء، كل من

يمر بالبئر؛ فتقطع الطريق، وتغرق القرى في الرعب، وإن كان هذا ذنبًا فأنا أحمله.

تقدّمت (كاليسا) خطوة، ورأسها مرفوعة بعزة، فهي ابنة ملك الجان وقالت: لم نأتي لقتال، بل لنمر.

ضحك الملك: المرور؟ لا أحد يمر من غابتي، إلا محمولًا أي مقتولًا.

مدّ (صالح) يده وأخرج قنينة الزئبق الأحمر، انسكب الضوء الأحمر على ذهب الكرسي، فارتجف العرش، وانعكس التوهج في عيني الملك.

وقال (صالح): هذا الزئبق الأحمر هدية لجلالتك، سيعيد شبابك، ويذهب هذا الشيب والوهن بلا رجعة، وتعود لك قوتك التي أفناها الزمن.

قال الملك، بصوته أقرب للصراخ: زئبق أحمر؟...

في لمح البصر خطف القنينة، فتحها، وشربها في طرفه عين، لم يستطع (صالح) رؤية القنينة كيف صارت في يد الملك،

وكيف فتحها، وكيف شربها بهذه السرعة، فقط وجد يده فارغة، والملك يبتلع الزئبق.

ارتجّ جسد الملك، اندثر الشيب، واشتدت عضلاته، وقف الملك فجأة أقوى، وقد عاد شبابه، وأصبح أكثر خطرًا.

صاح ضاحكا: عاد الشباب، وعادت القوة والسيطرة.

ثم اقترب من (صالح) حتى صار وجهه قريبًا منه: حياتك صارت دينًا في رقبتي، لكن أعرف جيداً أن الهدية لا تعني أمانًا.

التفت الملك إلى الحراس: دعوه يدخل المدينة.

ثم عاد بنظره إلى (صالح): لكن اعلما جيدا، مدينة الغابات لن تغفر، وعائلة (هيثمور) لن تنسى قتل ابنتهم.

قال (صالح) بهدوء: لم أحضر لقتال، وإنما لعودة أولادي من وادى الموت.

لوّح الملك بيده، فانفتحت أبواب جانبية تؤدي إلى المدينة.

قال: ادخل، وتمنياتي لك بعودة أولادك، والخروج من الغابة سالما، لك عندي فتح باب الخروج أيضا، أما المرور فلك.

خرج (صالح) و(كاليسا) من القاعة، ووقع خطوات الحراس خلفهما، كأنه عدّ تنازلي.

قالت (كاليسا) بصوت منخفض: الملك فتح لنا الباب، لكن المدينة لن تفتح قلبها.

(٣٤)

ما إن ابتعد (صالح) و(كاليسا) عن القصر، حتى تغيّر شكل الغابة، لم تعد صامتة، بل مترقبة، والجان خرجوا من بين الأشجار، قاصدين (صالح) و(كاليسا)، تقدّم الحرس، وأحاطوا ب(صالح) و(كاليسا) من كل الجهات لحمايتهما، توقّف الحصان في ساحة دائرية بين الأشجار، الغابة لم تعد خضراء، كانت داكنة، خانقة، كأنها تتنفس غضبًا، اصطفّ الجان في دوائر، لا صيحات، لا همس، بل صمت مطلق.

تقدّم كبير عائلة (هيثمور)، أشبب الشعر، منحنى القامة، على وجهه أثار السنين، وفي صوته وجع وألم دفين، واصطفت عائلة (هيثمور) في نصف دائرة، وجوه قاسية، وأيادٍ على مقابض السلاح، تقدّم كبير العائلة خطوة واحدة، وصوته خرج أجشا غليظا كأنه أتى من الماضي:

- هذا الإنسي قتل ابنتي، وفي غابتنا وقانوننا، من قتل يُقتل.

دوت همهمات غضب بين الجان؛ فقال أحدهم:

- إن عاش، فسيسقط حاكم المدينة! لأنه أخذ رشوة منه، الزئبق الأحمر وأصبح شابا.

صاح قاضي الجلسة: أخرس أيها الغبي، حاكمنا سمح لهما بالمرور فقط إذا وافقتم أنتم.

صاح كبير العائلة بمن اتهم الملك بالرشوة وطرده: اخرج من الجلسة، أنتم رعناء، وسبب المشاكل.

رفعت (كاليسا) رأسها، لكن (صالح) سبقها، وقال بهدوء: قتلتُها، لأنها قتلت زوجتي فهي قاتلة.

كبير العائلة: لم تقتلها، ولكن الخوف من قتلها.

(صالح): ومن الذي أفزعها، وقتل الكثير من أهل القرية، بل وحرق القرية؟

كبير العائلة: أنت تخلط الأوراق، أنت قتلتها بالسلاح، وهذا له قانون.

(صالح): أعرف قانونكم، لكن موتي لن يُعيد ابنتك.

ارتفعت الهمهمات رافضة رد (صالح).

صرخ كبير العائلة: الصمت! نعم لن يعيدها، لكن يشفى صدورنا، فدمها في عنقك، وإن لم تقتل، سنتمرّد!.

صاح القاضي: هذا خطأ كبير ومرفوض أل (هيثمور).

اهتزت الأرض، وفجأة انشق الصف، فدخل الملك بهيئة شامخة، شباب عائد، قوة واضحة، فقال الملك بصوت لا يُجادل: لقد سمعت كل شيء.

التفت إلى (صالح): لو قُتلت يا (صالح) انتهى كل شيء، لكنني وعدتك بالإبقاء عليك، ولو عشت، ستنفجر المدينة ثائرة.

ثم نظر إلى كبير العائلة: تريد العدالة، أم تريد القوة؟

زأر الكبير: أريد الثأر، وأنت تحمية لأنه أعاد لك الشباب.

أحس (صالح) من رد كبير العائلة أنه يتمنى الشباب، ويحقد على الملك لعودة شبابه، وحياته الآن في يد هذا الجد، ولن يستطيع الملك حمايته، فقد هدد بهدم ملكه؛ فأخرج (صالح) قنينة زئبق أحمر ببطء، ورفعها دون اقتراب: هذا زئبق أحمر، يعيد الشباب، لكن لا يعمل إلا إن قُدِّم طوعًا وبالرضا.

ضحك الملك: لو أُخذ بالقوة يصير سُمًا.

سكت الجميع، فتقدّم الملك خطوة: تقتل الإنسي وتشيخ أكثر، أم تأخذ الزئبق، وتعود شاباً، وتتمتع بالحياة وتحكم عائلتك خمسمائة عام أخرى.

ارتعشت يد الكبير، وقال بصوت مكسور: وهل سيعيد موت الإنسى ابنتي؟

أجابه الملك ببرود: لا.

صمت طويل، ثم مد الكبير يده، وتناول القنينة.

قال: دمها لن يُنسى، لكن الشباب أولى.

وفى نفس اللحظة، عاد إليه شبابه وقوته؛ فهتف أهله الجان: الحياة للملك وجدنا (هيثمور) الشاب.

قال الملك: يُسمح للإنسي بالعبور، وأي أذى له هو إعلان حرب.

ثم التفت إلى (صالح): لقد وفيت بوعدي.

تحركت الأشجار، وانفتح ممر الخروج، وخرجوا في هدوء، ركبا الحصان وانطلق يقطع الطريق قطعا، وفى يده راية المرور الأمن حتى لا يتعرض له أحد، وبعد مسيرة يوم وجدا نفسيهما أمام بوابة الخروج، وشاهدا راية المرور، وقد سبقهم موافقه الملك، ففتح الباب وخرجا إلى الفضاء الشاسع، ثم إلى المدينة التالية.

(٣٥)

خرج (صالح) و(كاليسا) من المدينة الثالثة، لا كمنتصرَين، بل كناجين بالكاد، وقد خسر قنينة زئبق لم تكن في الحسبان، أضطر ان يدفعها ل(هيثمور) الجد لينجوا بحياته؛ فقد كان بينه وبين الموت هذه القنينة، كان متعباً ممسكاً بنفسه فوق الحصان، كتفاه مثقلتان، وعيناه محمرّتان من السهر والصراع والنقاش والجدال مع الملك وآل (هيثمور)، فكل خطوة في هذا العالم كانت تأخذ منه جزءًا من روحه، أمامهما امتدّ الخلاء...

فراغ واسع لا يُرى له نهاية، أرضه شاحبة متشققة، كأنها جُرّدت من الحياة، وتركها الزمن عارية.

توقف (صالح)، وأنزل رأسه قليلًا وقال بصوت منهك: لا أستطيع أن أكمّل، لابد من الراحة لبعض الوقت، أحتاج أن أنام ليومين بلا انقطاع.

نظرت إليه (كاليسا) بعينين امتلأتا قلقًا وحنانًا، وأومأت دون تردّد، ومدّت كفّيها في الهواء، وهمست بلغة لا يفهمها (صالح)، وتعود عليها، فتغيّر الفراغ من حولهما، وانشقّ الخلاء عن نفس الخيمة، غرفة نوم جميلة نبتت في الخلاء، من لا شيء

وفي وسطها سرير واسع مريح، تفوح منه رائحة المسك، وأحس بطمأنينة غريبة.

(كاليسا) بصوت خافت: تفضل يا حبيبي، هنا ستنام حتى تستريح، وتكون قادرا على تكملة المسيرة.

جلس (صالح)، ثم تمدد، وكأن جسده استسلم أخيرًا، ثم أخرجت له طعامًا شهيا، به كل ما يحبه، فهي تعرف ما يحبه جيدا، أكل (صالح) بنهم، وكعادتها وهى تضحك معه، أعطته الشاي، وقالت باسمة: "خد الشاي علشان تحبس"..

شرب بسعادة ومن بسمتها معه نسي كل التعب النفسي، ثم غلبه النوم، وراح في سبات عميق، راقبته (كاليسا)، كأنها تحرس حلمه من هذا العالم القاسي.

(٣٦)

استيقظ (صالح)، وقد دب النشاط بجسده وأحس بالراحة، وأنه صار أصلب، نهض ووجد (كاليسا) بجانبه مستيقظة تبتسم له، وفى ثانية وجد الإفطار الذى يحبه، وكاد أن يرقص فرحا به، وجد الفول والطعمية، فضحك وهلل: معقول يا حبيبتي؟، فول وطعمية هذه مفاجأة جميلة.

- أعرف أنك تحبهما، وكذلك أنا أحببتهما.

تناولا الطعام، وقاما ثم امتطيا الحصان، واختفت الغرفة كما ظهرت، وعاد الخلاء كما كان، وكأن شيئًا لم يكن. وانطلق الحصان يقطع الطريق، وبعد مسافة طويلة، بدأت الأرض تتغير، إلى أرض متشققة، يخرج منها دخان نار متقدة من سنين، وكأنهما في طريقهما إلى جهنم.

(٣٧)

وقف (صالح) و(كاليسا) أمام بوابة لم يشهد مثلها من قبل، بوابة لا تُبنى، بل تُركَّب من الذنب نفسه، لم تكن من حجر ولا من فولاذ، بل من عظام بشرية متشابكة، عظام صُفّت كأنها جدار حيّ، تتخللها جماجم مفتوحة الأفواه، ماتت عن صرخة لم تكتمل، الهواء حول البوابة باردٌ قاسى، بينما الأرض أسفل تلسع الأقدام كالجمر، ورائحة الموت ممزوجة ببخور أسود يضغط على الصدر حتى يكاد يخنقه.

رفعت (كاليسا) يدها تجاه البوابة، وأرسلت حزمة من الأشعة صرخت منها الجماجم المرصوصة بالبوابة.

وقالت (كالسيا): يا حماة الأرواح البشرية الراحلة، نطلب لقاء ملككم حامي وساجن تلك الأرواح الشريرة الكافرة.

فجأة، تحرّكت البوابة، خرج من العتمة حارسان، ليس لهما ملامح، أجسادهما عملاقة، سود كزبانية جهنم، أطرافهما طويلة غير متناسقة، وأجنحتهما الشفافة الداكنة تخفق ببطء، فتُحدث صوتًا يشبه احتكاك سلاسل صدئة، أما الوجوه فكانت جامدة،

صخرية صلدة بلا رحمة، معتمة، تنبثق منها عيون حمراء غائرة، لا تُبصر، بل تعاقب كزبانية جهنم، حرّاس ما بعد الموت.

لم يخط (صالح) خطوة، لكن وجودهما وحده جعله يشعر أن روحه تخرج، فتقدّم أحدهما دون حركة، وكأن المكان نفسه انزلق نحوه، وخرج صوته معدنياً حارقًا:

- قفا، هذه بوابة الأرواح المنتظرة للحساب.

رفعت (كاليسا) رأسها، وانطلقت كلماتها كنداء قديم يعرفه هذا العالم، (كاليسا) بصوت ثابت جلي:

- يا أهل الأرواح الشيطانية، نطلب المرور الآمن، ونلتمس لقاء ملككم، صاحب الروح الطاهرة، الحامي، والمسيطر على الأرواح الشريرة التي تنتظر يوم الحساب.

نظر لهما الحارسان شذراً، وقال رئيس الحرس بغضب:

-الملك لا يقابل أحداً، هل أصابتكما لوثة لتطلبا المقابلة؟

هنا تقدم (صالح) خطوة، وأخرج قنينة الزئبق الأحمر ورفعها أمام الحرس، فخفق لمعانها كقلبٍ ينبض، دقت لدقاته قلوب الحرس جميعا.

قال الحارس بصوت أعمق:

- الزئبق الأحمر، مفتاح ما لا يفتح، ويعيد الشباب والحياة.

ثم ارتجّت البوابة، وتحرّكت العظام، واحتكّت الجماجم ببعضها، فخرج منها أنينٌ جماعي، كأن الجدار يتنفّس أرواحاً.

الحارس: ادخلا، لكن اعلما، من يعبر بوابة الأرواح، إن لم يمر يحبس مع الأرواح منتظرا الجحيم.

خفق قلب (صالح) رعبا، وتمتم في داخله:

- الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

فانفتحت البوابة ببطء، لتنفجر منها صرخة واحدة، صرخة آلاف البشر، الذين ماتوا أشراراً، وما زالوا ينتظرون.

(٣٨)

ما إن اجتاز (صالح) و(كاليسا) البوابة بحصانهما، حتى انطفأت الصرخة خلفهما، وحلّ صمتٌ ثقيل، كأن المدينة كلها تحبس أنفاسها، امتدّ أمامهما طريق عريض مفروش بحجارة سوداء مصقولة، تنعكس عليها ظلال مردة تتحرك بلا أجساد، وجوه قبيحة تُطل من العتمة ثم تختفي، وفي نهايته، ارتفع القصر، عملاق، ضخم، فخم، تشعر أنه يحوى أسراراً كثيرة بين جدرانه، المبنية من الصخر الداكن لكنها شفافة، تُرى خلفه أرواح معلّقة، كل روح في قفصٍ من نور خافت، لا تصرخ، بل تنتظر، بوابات القصر انفتحت وحدها، ودخلا، وفي قلب القاعة الكبرى حيث يجلس الملك، مخيفًا في هيئته، ومرعبًا في سكونه، على جبهته آثار قرون من الحكم، وعيناه تبث نيران، من ينظر فيهما يرى نفسه في أتون ملتهب من قرون، جلس على عرشٍ من صخرٍ ورماد، تنساب من جانبيه سلاسل من نار، تمتد إلى أعماق المدينة، حيث الأرواح الشريرة مقيّدة حتى يوم الحساب.

وقف (صالح)، وشعر بثقل لم يعرفه من قبل، تكلم الملك بصوت كأنه أتى من الجحيم:

- أحياء في مدينتي، نادراً ما تطأ أقدامهم هنا، ما الذي جاء بكما إلى مدينة (الأشرار في الانتظار).

(كاليسا): نطلب المرور الآمن، والعبور من مملكتك دون أن تمسّنا الأرواح بسوء.

وقف الملك وقال: أتعلمان أين تقفان؟.

نظر (صالح) إلى العرش بثبات وقال: في مملكتك.

ضحك الملك في سخرية وقال: هذا طبيعي أنت في مملكتي لكن لا أقصد هذا، أنتما في المنتصف، لا أحياء، ولا أموات، ومن يقف هنا لا يعود إلا بإذني.

تقدّمت (كاليسا) خطوة: كما قلت لك يا مولاي نطلب المرور الآمن، ومعنا ما يفتح أبوابك.

رفع الملك عينيه ببطء ل(كاليسا): أنت جنية فمن أنت؟

- أنا ابنة الملك (راكادور).

هز رأسه، وتوقف بصره على (صالح): المرور؟ ومن قال إن هذا المكان طريق؟.

ثم نهض فجأة، فاهتزت السلاسل وصرخت الأرواح: هذه محطة انتظار جهنم، من يفشل هنا لا يُعود إلى الحياة، بل يُضاف إلى القطيع.

شحب وجه (صالح) وقال: وما هو الاختبار هنا؟.

اقترب الملك، حتى صار صوته فوق رأسه وقال: فيما أنتم عليه فعلًا، لا فيما تدّعون.

تدخّلت (كاليسا) بحدة: نحن لا نطلب تدخلاً في الأرواح، ولا العبث بموازينك، نطلب عبورًا فقط.

ابتسم الملك ابتسامة خطيرة وقال: كل من قال "فقط" بقي هنا.

ثم قال واصفا الأرواح: هؤلاء بشر ماتوا أشرارًا، كفّارًا، مفسدين، لم تُلقَ بهم في النار بعد، فهم في انتظار الحساب.

ثم نظر إلى (صالح) قائلا: إن فشلتما ستكونان جسدين حيَّين بينهم، تأكلان مما يأكلون، وتسمعان ما يسمعون، حتى تُفتح أبواب جهنم.

ابتلع (صالح) ريقه: ولماذا لا تقتلنا اذاً؟

اقترب منه الملك أكثر، وهمس: لأن العذاب أن تنتظر وأنت تعلم المصير.

أخرج (صالح) القنينة: وماذا عن هذا يا مولاي؟ ألا تحب أن يعود لك شبابك المفقود وعندنا في مصر كبشر نقول ضاحكين سعداء "نصفر العداد" أي نبدأ نعد من جديد، كأنك ولدت من جديد.

تغير وجه الملك لأول مرة، وصاح صارخاً: الزئبق الأحمر، هل هذا حلم أم حقيقة.

(كاليسا): نقدّمه هدية لمولاي.

خطف الملك القنينة، وسكبها في جوفه في سرعة البرق، وبدأ يحس بالقوة تضرب بأوصاله، وتعم بدنه فنسى وقاره، وقفز لأعلى صارخا:

- عودة الشباب، إنها عودة الحياة.

وجلس على العرش وقال في هدوء: الآن لكم العبور، أما المرور في المدينة فبيد الأرواح.

ثم نظر إلى (صالح) و(كاليسا): وأستطيع أن أُطلق الاختبار.

ضرب الملك الأرض بعصاه، فانشقّ الجدار خلفه، وظهرت المدينة كاملة، أرواح مرصوصة رجال، نساء، شيوخ، لكن وجوههم محمّلة بالشر، والشهوة، والغل، والكراهية.

الملك: ما يريدونه منكما ليس الدم، ولا القتال.

(اقترب خطوة) إنهم يريدون أن تسقطا كما سقطوا.

تجمّد (صالح)، ولم ينطق.

الملك: سوف يسألونكما، ويستفزونكما، ويتحرّشون بأفكاركما، سيعرضون عليكم الذنب كخلاص.

ثم نظر مباشرة إلى (صالح): إن أخطأتَ مرة، لن تُغفر لك.

ردت (كاليسا): والحل يا مولاي؟ نحن نريد العبور فقط.

الملك: ولماذا؟ وإلى أين تعبرون؟.

فقصت عليه (كاليسا) قصة (صالح) وخطف أولاده، فتأثر الملك بما سمع كثيرا، وقال: موقفكم صعب جدا، ولكن العبور مشروط، تفوزان عليهم لا بالقوة، بل بالنقاء.

(كاليسا): وكيف الفوز؟

ابتسم الملك وقال: ألاّ تمنحوهم ما يريدونه، فلو انتصروا عليكما، ستبقيان بينهم، أحياء تنتظران جهنم معهم.

ساد صمت ثقيل، تقدّم (صالح) خطوة، وصوته ثابت رغم العاصفة داخله: هم أشرار، سيحرّفون أي إجابة - ثم رفع رأسه- مولاي نريدك أنت الحكم.

نظرت (كاليسا) إلى الملك مباشرة: أنت الملك والحارس والأمين، لا نثق بميزان غيرك.

تأمّلهما الملك طويلًا، لأول مرة، ظهر شيء يشبه الاحترام.

الملك: تطلبان عدلًا، في مدينة بلا عدل؟ مدينة المذنبون.

ثم قال بعد صمت: موافق.

وضرب بعصاه الأرض بقوة، انفتحت بوابة جانبية في القصر، وراءها ساحة واسعة دائرية، أرضها من رماد متصلّب، وفي وسطها دائرة سوداء، تدور ببطء.

وقال الملك: أنا الحكم، وأحذر الارواح التي تعودت وشربت الغدر، فأي محاولة غدر، أحسبها خسارة على الأرواح.

تعالت صرخات غاضبة من المدينة.

أكمل الملك: هناك، سيُكشف ضعفكما- ونظر إلى (صالح) نظرة أخيرة وقال: تذكّر، هم لا يريدون إجابة صحيحة، بل يريدونك أن تشبههم.

تحرّكت الأرواح نحو الساحة، كأمواج سوداء، فأمسك (صالح) بيد (كاليسا)، خطا معاً نحو ساحة الصراع.

(٣٩)

تجمّعت الأرواح في دائرة واسعة، وجوه شيطانيه، أعينها تطلق سهام مسممه، وأفواهها تعرف طريق الإغواء، وتحفظ الكلمات القاتلة أكثر من السلاح، وحركاتها مستفزة، وفى الوسط وقف (صالح) و(كاليسا) وحصانهما، كانت السماء بلون النار، والأرض رماد أسود، وفي المنتصف جلس الملك على منصّة مرتفعة من عظام متماسكة، مفتول العضلات بعد أن عاد إليه شبابه، ممسكاً بعصاه في يده، نظر إلى الجميع وأشار بيده وقال: ليبدأ السؤال، وأنا الحكم.

تقدّمت روح، ملامحها تشبه رجلاً عادياً، لكن ابتسامتها كانت كئيبة، وقالت: يا (صالح)، هل تظن نفسك أفضل منّا؟.

صمت (صالح) لحظة، وقال: لا، حاشا لله، بل أقلكم.

ضحكت الأرواح: إنه يخدعنا.

الروح: كذبت، كل من يقف هنا يظن نفسه أنقى.

اقتربت روح ثانية: ألم تضعف يوماً؟ ألم تشتهِ شيئاً وأخذته عنوة؟ ألم تظلم؟.

رد (صالح) في ثبات: نعم ضعفت، من منا لم يضعف، لكنّي تماسكت وتغلبت على نفسي.

تعالت همهمات: كاذب.

روح ثالثة (ساخرة): وهل مقاومة الضعف فيه افتخار، ويجعلك أنقى؟.

(صالح): لم أقل ذلك إنني أخاف الله لذلك أقاوم شهواتي.

تحرّك الملك قليلًا، لكن لم يتكلم، فتقدّمت الأرواح أكثر، وصار صوتهم واحدًا: اعترف، كلمة واحدة ونخفف عنك.

(صالح) (غاضبًا): تريدون أن أسقط كي لا تسقطوا وحدكم!.

ضحكوا في استهزاء.

روح رابعة: بل نريدك صادقًا، كن مثلنا، ثم اعبر.

ضرب الملك عصاه الأرض، ثم قال: السؤال لا يزال قائمًا، هل أنت تُشبههم؟.

سكت (صالح)، كانت هذه لحظة الضعف، تقدّمت (كاليسا) خطوة للأمام، وعيناها تلمعان: أنتم لا تسألون لتعرفوا، بل لتحولوه شريكًا.

اقتربت روح منها: وأنتِ؟ جنيّة تحب إنسانًا؟ ألم يكن حبك ضعفًا؟.

ارتجفت (كاليسا)، ثم تماسكت: الحب ليس ضعفًا، الضعف ما أنتم فيه كرهكم لأنفسكم، وتبحثوا عمّن يشارككم القبح.

تعالت صرخات غضب، فتقدّمت روح أكبر، أقدم، وصوتها أعمق: سؤال أخير، يا (صالح)، لو عُرض عليك الخلاص مقابل أن تتركها، هل تفعل؟.

تجمّد (صالح)، ونظر إلى (كاليسا)، والملك انحنى للأمام وقال: أجب، ولا تنظر لأحد.

لحظة صمت، لملم نفسه ثم قال (صالح) بصوت ثابت: لا، لو تركتها صرت واحدًا منكم، وأنا أفضل الجحيم على أن أعيش بلا قلب فاقدا نفسي ف(كاليسا) هي نفسي.

سرت رجّة في الساحة، ووقف الملك: كفى.

سكتت الأرواح فجأة، فضرب الملك بعصاه الأرض: الجولة التالية والأخيرة.

تقدّمت روح بوجه مألوف ل(صالح)، كأنها خرجت من ذاكرته: يا (صالح)، كنت تجلس أمام المحاكم، تكتب شكاوى لناس ضد ناس، هل كنت تتأكد أن الكلام الذى تكتبه هو الحق قبل أن تكتبه؟.

ساد صمت.

الروح (ضاغطة): أم كنت تكتب لأنهم يدفعون؟.

ضغط (صالح) على أسنانه غضباً: كنت أكتب، لا أحكم.

ضحكت الأرواح استهزاءً بالإجابة.

روح ثانية: كذبه مرتب! أنت تعرف أن الورق يحبس ويظلم ويهدم البيوت.

اقتربت روح ثالثة: كم من بريء تأذى، لأنك لم تسأل وتتحرى الصدق؟

ارتفع صوت (صالح) لأول مرة:

- كنت آخد ثمن الكتابة، ليس ثمن الخصام! هم أصلًا أعداء، وأنا ما خلقت العداوة ولا زرعتها!.

صدرت همهمة عالية، فتدخّل الملك: الرد سُجّل، أكملوا الصراع.

تقدّمت روح أخرى، عينها سوداء تمامًا بلا بياض: وحاربتَ الجن، أخرجتهم من أجساد كانوا يعيشون فيها.

ثم اقتربت أكثر: ألم يكونوا محبّين لتلك الاجساد؟ ألم تكن بيوتًا لهم؟.

تصلّبت ملامح (صالح): أنها أجساد بشرية وهم جان، وليست ملكهم، لقد كانوا يعتدون عليها ويؤذوها، وجاءت الناس طالبه الخلاص منهم، إنهم يكسرون إرادة أصحاب الأجساد، إنه احتلال.

صرخت الأرواح رافضة وصاحت: ومن أعطاك الحق في زواج جنية؟ ألم تتزوج (كاليسا) الجنية، أحلال لك وحرام لهم.

نظر (صالح) مباشرة إليهم: الحق إن الإنسان ما يتحولش لأداة، وإن الساكن بالقوة غاصب، حتى لو كان من عالم تاني، وأنا

علاقتي ب(كاليسا) ليست بالقوة بل بالحب، لقد تزوجنا وهى لم تقتحم جسدي، تزوجنا بإرادتنا.

صمت مفاجئ، الملك أومأ ببطء.

ابتسمت روح بخبث، والتفتت إلى (كاليسا): وأنتِ، جنيّة قوية، أجبرته على الزواج، أليس كذلك؟

ضحكت الأرواح وكأنها وجدت السبب والخلاص.

روح أخرى: بالسحر؟ والهيمنة والخوف؟.

تقدّمت (كاليسا) خطوة، عيناها ثابتتان: لو كنتُ أجبرته، ما وقف هنا مختارًا، وقد اعترف لكم بالحب.

قاطعتها روح: الحب عندكم قناع جميل للسيطرة.

نظرت (كاليسا) إلى (صالح)، ثم عادت بنظرها إليهم: لم آخذه من عالمه، هو دخل عالمي بإرادته.

ثم قالت بحدة: نحن لم نحب لأننا ضعفاء، بل لأننا استطعنا ألا نكره.

ارتفعت الأصوات، تقدّمت الروح الكبرى: إذن اعترف يا (صالح)، أنك لست بريئًا.

تنفّس (صالح) بعمق: عمري ما قلت إنني بريء.

اندهش الجميع وهللت الأرواح: لقد اعترف بالذنب.

(صالح) مكملًا: بس في فرق، بين من يخطئ ومن يحب الخطأ.

نظر إليهم واحدًا واحدًا: أنا حاولت أن أصلّح، وأنتم تتفاخرون بالفساد.

وقف الملك، وصوته كالسيف: كفى.

سكتت الأرواح.

الملك: اتهمتموه بذنب، فاعترف بالمسؤولية لا باللذة في فعل الذنب وإدمانه.

ثم نظر إلى (كاليسا): واتهمتموها بالقهر، فواجهتكم بالاختيار.

ثم ضرب بعصاه الأرض: لقد خسرتم، كما خسرتم دنياكم فيما قبل.

صرخت الأرواح غضبًا، لكن الساحة بدأت تبتلعهم.

الملك (حكم نهائي): الذنب لا يُهزم بإنكاره، بل بعدم توريثه، وعدم الافتخار به، افتحوا طريق العبور لهم.

تعانق (صالح) و(كاليسا)، وامتطيا الحصان، وانطلقا في طريقهما للخروج من البوابة، لم يتوقفا من شدة الخوف من الأرواح الشريرة، وخيانة العهد والمواثيق، بل حلق الحصان في الجو.

(٤٠)

خرج (صالح) و(كاليسا) من بوابة المدينة الرابعة، مدينة الأرواح الشريرة، عبراها والحصان يطير بهما، يسابق الزمن خوفا من غدر الأرواح الشريرة، لا يلتفتان خلفهما، لم تكن هناك صيحات وداع، ولا صراخ أرواح، كأن المدينة ابتلعت نفسها، وأغلقت على جراحها، خطا خطوة واحدة خارج البوابة، فانقطع كل شيء. الصمت يبتلع المكان، وحولهما أرض بور كلها نتوء، غير ممهدة، سماء داكنة، لا نور، ولا اتجاه، أرض شاسعة بلا أي مباني، كانا في فضاء بلا حدود، فراغ، سكون مميت، لا صوت غير صوت الريح، كأن العالم السفلي توقف عن الحياة.

توقف (صالح) فجأة، أحس أن روحه تسحب منه، فما عاناه في تلك المدينة الشريرة نفسياً أنهك روحه وبدنه، وكان في حاجة للراحة، فنزل من فوق الحصان، جلس أرضا وقد خارت قواه.

(صالح) بصوت مكسور: كفاية، مش قادر أكمل دلوقتي.

نظرت إليه (كاليسا)، رأت عينيه ذابلتين، والتعب يرنو منهما، فقالت بهدوء حنون: إنت مجهد جداً.

تنفّس (صالح) بعمق وقال: قطعنا يوماً كاملاً على الحصان، بعد عذاب مميت وسط أرواح تأكل الذنب، وتتنفس الحقد، حاسس إنهم لسه جوه صدري. مدّت (كاليسا) يدها، وضربت الأرض، فانبثق المكان، وظهرت رقعة صغيرة من الأرض خضراء، حديقة غناء، ووسطها فرش وثير ناعم، لم تُدنّس من قبل، تظللهما أفرع خضراء متداخلة وكثيرة الاوراق، فيها نور خافت للنوم.

(كاليسا): هذا أفضل من الغرفة، شوية تغير لراحتك.

وضعت أمامه الطعام الذى يحبه، أكل (صالح) في صمت، كل لقمة كانت تعيد إليه شيئاً من قوته، ثم مدد جسده، وقبل أن يغفو، قال: أكثر شيء أوجعني، إن بعض كلامهم كان صحيحا.

جلست (كاليسا) بجانبه: الأرواح الشريرة، دائمًا تكذب، وتغير الحقائق، وتستغلها لصالحها، وتحب الحقيقة لما تجرح فقط.

أغمض (صالح) عينيه، وراح في سبات عميق، من كثرة التعب.

(٤١)

استيقظ بعد وقت لا يُقاس، شعر أن صدره أخف، وأن النشاط يدب ببدنه، وقف، نظر أمامه، فرأى على مدى بصره فراغ، ركبا الحصان وانطلقا، وبعد مسيرة يوم، ظهر أمامها أسوار بعيدة، أبراج مرتفعة سوداء تومض بوميض أزرق، فسأل (كاليسا): هذه المدينة الخامسة؟.

(كاليسا): نعم، وآخرهم.

نظر إليها: هذه المدينة ليست اختبار، كلام صحيح.

نظرت للمدينة البعيدة: هذه مدينة لا تفتح أبوابها إلا لمن على شاكلتهم.

(صالح): ماذا يعنى؟.

(كاليسا): هذه مدينة (عزازيل).

(صالح): تقصد مدينة (إبليس).

(كاليسا): بوابة (إبليس) وعبدة الشيطان.

(صالح): أعوذ بالله، هذه ستكون ختاما صعبا جدا.

(كاليسا): الحذر مهم فهي تعتمد على الحوار.

سارا نحو البوابة الخامسة، نحو المدينة التي لم يدخلها أحد، ويخرج كما كان.

(٤٢)

وقف (صالح) و(كاليسا) أمام البوابة الخامسة، لم تكن بوابة تُفتح، بل بوابة تُسترضى، صفائح فولاذ أسود متشابكة، تتخللها عروق نحاسية حمراء نابضة، كأن الجدار حيّ يتنفّس، فوقها نُقشت رموز قديمة كأنها تعاويذ، وتحتها سلاسل ضخمة معلّق بها جماجم ملوك وأناس سقطوا، وهم يطلبون الدخول، لا ريح؛ لا صوت؛ فقط ثِقلٌ يخنق الصدر.

تقدّمت (كاليسا) نصف خطوة، ورفعت يدها، وأرسلت حزمة من الاشعة ارتطمت بالبوابة، فصرخت الرؤوس المعلقة بها صرخات قطعت سكون الفراغ الموحش.

وصاح (صالح): يا حُرّاس المدينة السوداء؛ يا حرّاس عرش (أزراميل) بن (عزازيل)، جئنا لا نطلب رحمة، بل نطلب العبور فقط ونحمل ما يعيد الشباب، ويُؤجَّل به الفناء.

(كاليسا): نحمل أكسير الحياة يا (أزراميل) يا ابن (عزازيل).

(صالح): نحمل الزئبق الاحمر.

اهتزّت البوابة اهتزازًا مدويا، وسمع دوى صراخ من الداخل لسماع اسم الزئبق الاحمر، وكأنها سمعت الاسم المستحيل تنفيذه وتذكّرته، ومن العتمة خرج ثمانية حراس، أجسادهم عملاقة، مدجّجون بدروع فولاذية، يحملون رماحاً أطرافها من نار، أعينهم متوهّجة بلون الدم، ووجوههم جامدة بلا تعابير، تقدّم قائدهم، كان أقدمهم، شعره أبيض، وجبهته محفورة بعلامة (ليليث).

قائد الحرس: الاسم الذي نطقتَ به (أزراميل) يُقطع به اللسان، من أنت حتى تذكر سيّداً، ولد ملك ووالده منتظر حتى الفناء؟.

رفعت (كاليسا) رأسها بثبات: أنا (كاليسا) ابنة الملك (راكادور)، وأعرف (ليليث)، و(عزازيل).

ساد صمت قصير، ثم خفّض أحد الحراس رمحه لا إرادياً، ثم اقترب القائد خطوة.

قائد الحرس: الملك (أزراميل)، ثلاثة آلاف عام وهو يحكم، لكن الشيخوخة لا تُرهِبها التيجان، فما الذي جئتما به؟

مدّ (صالح) يده، وأخرج قنينة الزئبق الأحمر، ما إن ظهرت حتى احمر الهواء، وتشقّق الحجر تحت الأقدام.

(صالح): ألم تسمع ما قلناه؟، إنه زئبق أحمر؛ لم يُدنَّس، ما زال بكراً طاهراً، ولم يُستعبد بتعويذة.

ارتدّ الحراس خطوة واحدة، وكأن حرارة خفيّة لسعتهم.

قائد الحرس (بصوت منخفض): هذا ما يشتهيه الملك، لكنه لا يثق بك.

(صالح): فليجرب (أزراميل) بنفسه، وحياتنا رهن التجربة، ومرورنا رهنّ نجاته، وعودة الشباب له.

اقترب القائد حتى صار على بُعد ذراع من (صالح).

قائد الحرس: فليكن، لكن إن دخلتما لن تعودا كما دخلتما.

شدّت (كاليسا) قبضتها: لم نقطع أربع بوابات لنخاف من الخامسة، ولم نأتي للهو، افتحوا لنا الطريق إلى القصر.

ساد صمت ثقيل، ثم دوّى صوت عميق من خلف البوابة، صوت الملك، اهتزّت السلاسل، وانخفضت الرماح.

قائد الحرس (منحنيًا): افتحوا البوابة، فالملك (أزراميل) قد أذن لهما بالدخول فقط.

بدأت البوابة تنفتح ببطء، صوتها كأن الجحيم يفتح فمه، ومن الداخل ظهر طريق حجري طويل، تصطف على جانبيه تماثيل ملوك مذبوحين، وفي نهايته يلوح قصرٌ شاهق تتوهّج نوافذه بلون الدم، وقبل أن يدخلا، قال القائد بصوت بارد:

- من هذه اللحظة؛ أنتما في أرض الملك، والكلمة هنا، قد تكون حكماً بالموت.

دخل (صالح) و(كاليسا)، وأُغلقت البوابة خلفهما.

(٤٣)

انغلقت البوابة الخامسة خلف (صالح) و(كاليسا) بصوتٍ مكتوم، كأن العالم الذي تركاه قد مُحي، وامتدّ أمامهما طريق حجري أسود، مستقيم كالسهم، لكنه حيّ، الحجارة تتحرّك ببطء تحت الأقدام، دافئة، نابضة، كأنها جلد مخلوق مدفون تحت المدينة، الهواء ثقيل، لا يُستنشق، بل يُبتلع، رائحته خليط من دم قديم، وبخور فاسد، وكلمات مبهمة على جانبي الطريق، ارتفعت معابد عبدة الشيطان.

مبان ضخمة من حجر داكن، بلا نوافذ، تعلوها أبراج مدببة، وعلى جدرانها نقوش ل(ليليث)، و(عزازيل)، وأسماء كثيرة غير مفهومة، ومن داخل المعابد، خرجت الأصوات، همهمات، تراتيل مبهمة، ضحكات مثل الصراخ، أصوات العبادة لم تكن دعاءً، بل اعترافات، توسلات، أصوات جانّ رجال ونساء، تتداخل:

- نحن لك؛ أجسادنا فداءك؛ أعمارنا قرابين.

ارتجف الطريق نفسه مع كل نغمة، ظهرت مجموعات من الجان، لا يقفون منفردين، بل في دوائر، كأنهم خُلقوا للسجود

معاً، أجسادهم مختلفة، بعضهم بأجنحة، بعضهم بلا ملامح، وبعضهم يسير على أربع، يجرّ سلاسل تنتهي بجماجم بشرية، كانت عيونهم تتابع (صالح) و(كاليسا)، بعداء، وبكره قديم، (كاليسا) (بهمس):

- هذه ليست مدينة، هذا مذبح ممتد.

مرّا بجوار معبد أكبر من الأول، بابه مفتوح، ومن الداخل شوهد مذبح حجري، عليه كائن مصلوب رأساً على عقب، والدم ينزل ببطء، يرسم رموزاً شيطانية على الأرض، وفجأة، تعالت الأصوات، قرع طبول عميق، صراخ نشوة، ضحك هستيري، خرجت من المعابد أبخرة سوداء، تشكّلت في الهواء على هيئة وجوه تصرخ، ثم تذوب.

(صالح) شعر أن صدره يضيق، كل نفس كان كأنه توقيع على كفرٍ لا يريده، شدّ على يد (كاليسا) وقال:

- هذا المكان لو مكثنا فيه أكتر، سيبدأ يأكلنا من الداخل.

في نهاية الطريق، بدأ يظهر قصر (أزراميل) ابن (عزازيل)، لم يكن قصراً، بل جبلًا منحوتًا، تتدلّى منه سلاسل، وتحيط به

أبراج سوداء، وعلى قمّته قبه كبيرة، كانت تدور ببطء، كأنها ترقب الوافدين، وقبل الوصول إلى الساحة الكبرى، مرّا بجانب معبد أخير، خرج منه صوت طفلٍ يبكي، ثم تحوّل البكاء إلى ضحك شيطاني حاد.

توقفت (كاليسا) لحظة، ثم قالت بصوت ثابت يخفي رعبًا:

- من هنا لا يسمعك أحد، ولا ترى سماء.

وقف (صالح)، ونظر إلى القصر، ثم تقدّم دون تردد: لكن الملك (أزراميل) سيسمع.

تابعا السير، وأصوات العبادة تلاحقهما، والمدينة كلها تتنفّس كُفراً فهم عبدة الشيطان، حتى وصلا إلى ساحة القصر.

(٤٤)

وصلا إلى القصر، دخلاه في حذر، قصر مهيب مخيف، مبنى من الصخر الأسود، أعمدته كأنها جذوع عمالقة، والسقف مرتفع، ذات قبة كبيرة بها رسومات غريبة لتعاويذ يعرفها (صالح)، رآها في كتاب شمس المعارف، مشاعل زرقاء على الجدران لا تُدفئ، بل تُرهب، بينها نقوش ورسومات لجان راكعون، وملوك يضعون التيجان عند أقدام الشيطان، كان العرش في نهاية القاعة، كتلة واحدة من الذهب، وعليه جلس (أزراميل) بن عزازيل، جسد هائل، عينان حمراوان لا ترمشان، بشعره الأبيض الطويل، تبدو عليه علامات السنين، تعلن عطشها لقوةٍ افتقدها وأكلها الزمن، اصطفت حوله حاشية من جان عبدة الشيطان، أجسادهم ممشوقة، قرون، أجنحة، وأسلحة تتنفس ناراً، (أزراميل) (بصوت يهز القاعة): أهلًا بمن يريدون عبور ما لا يُعبر، بشر يظنون أنفسهم أنداد لنا فالجحيم مثواهم، ما الذي أتى بكم إلى هنا، عند عرشي؟.

(صالح) ثابت رغم الرهبة: نريد العبور فقط، لا نبحث عن عرشك.

ضحك (أزراميل)، ضحكة باهتة وقال: العبور؟! كل من جاء قبلكم عبر لكن إلى العبودية.

وأشار بيده، فانحنت الحاشية في آنٍ واحد، (أزراميل): اركعوا، واعبدوا وسأجعلكم ملوكاً تحكمون العالم.

(كاليسا) و(صالح) في غضب: لن نركع إلا لله، ولن نركع لابن (عزازيل)، ولا نبيع أرواحنا مقابل طريق.

اقترب (أزراميل) خطوة، وانخفض صوته كالسم وقال: الحرية كذبة، وأنا أُعطي القوة والمُلك، عبدة الشيطان هنا لم يجبروا، هم من اختاروا.

نظر (صالح) إلى الحاشية، فرأى في عيونهم شيئاً أسوأ من الشر، حولتهم عبادة الشيطان إلى الفراغ النفسي، اللاوعي، اللا شيء.

(صالح): لم يختاروا بل خافوا، وأنا لا أعبد إلا خالقي، أعبد الله.

ساد صمت، وترقب، ثم بدا الغضب على (أزراميل) فرفع يده، فانطلقت السلاسل من الأرض، وأحاطت بهم، ووقف (أزراميل)

وقال بتحدي صارخاً: إذن ستبقون هنا، حتى تتعلموا معنى الانكسار!.

في تلك اللحظة، أخرج (صالح) القنينة، لم يكن الزئبق الأحمر يلمع فقط بل ينبض، كقلب مسجون، تجمد (أزراميل) مكانه، وقال بهمس مرتعش: الزئبق الأحمر!.

اقترب (صالح) خطوة، رغم القيود: أنا يا أيها الملك من أعطيك القوة، ولست أنت من يعطى القوة، وهو ليس للبيع، وليس ثمنه العبادة كما تفعل جلالتك، لكن ثمنه العبور فقط.

تقدم (أزراميل) بصعوبة، وكأن الزمن ثقُل على جسده، وخطف القنينة، وأفرغها في فمه في لهفة، وبدأ الشباب يدب بجسده، وظهره المنحنى انفرد ودبت به القوة، ووقف كشاب يافع وأطلق ضحكه رجت جدران القصر.

(أزراميل): ها أنا أستعيد ما سُلب مني عبر الزمن، وبدونه كدت أموت ملكاً عجوزاً.

صمت طويلا، ثم أشار للحراس: أطلقوهم، أوافق على عبوركم لكن بشرط.

نظر (صالح) و(كاليسا) بحذر، فأكمل (أزراميل): تجلسون مع الجان عبدة الشيطان، تناقشونهم تسمعون حججهم، فإن أقنعوكم تجلسون عبيدًا، فلا عبور، وإن فشلوا فالعبور لكم.

وابتسم ابتسامة خبيثة، وقال: أريد أن أرى، هل ما زال في هذا العالم من لا يُشترى.

(٤٥)

دخل (صالح) و(كاليسا) المعبد في حراسة مشددة، بعد تطاولهما على (أزراميل)، وأنهما من أعادا له القوة، كان المعبد يهتز كأنه على وشك الانهيار، اشتعلت الرموز الحمراء على جدران المعبد، وارتفعت أصوات التراتيل أقرب إلى الأنين.

تقدم الجان خطوة، وصوته يملأ المكان وقال: اعترف، أنك جئت تطلب القوة، وكل من طلبها سجد.

ضحك (صالح)، ضحكة باردة ساخراً وقال: أي قوة تتحدث عنها أيها الواهم، من أنقذ ملككم حين كسر الزمن سيف شبابه!؟ من أحيا دمه في عروقه حينما كانت روحه تنسحب؟ "صمت ثقيل وأردف" أنا من أعطاه القوة، ليس الشيطان.

اهتزّ المعبد رافضا كلام (صالح)، الجان (غاضبًا): احذر كلامك أيها البشري!.

فتقدم أكثر من (صالح)، وجها لوجه حتى صار ظلهما متداخلًا في الضوء الاحمر المتراقص وصرخ الجان: الشيطان هو من اختاره.

رد (صالح) بعنف: اختاره؟! إذا أين كان وهو يشيخ! أين كان وهو يتأكل من الداخل؟ لماذا تركه فريسة للزمن؟.

ثم اقترب (صالح) من المذبح ذلك الرمز الحجري الملطخ بالدم: لو الشيطان يحمي أتباعه، كان ملكهم ظل شاب قوي، لا يتنفس إلا بجهد.

قال الجان الأكبر، محاولًا التماسك: القوة داخلية، والولاء أبدي.

ابتسم (صالح) ابتسامة مرة داخلية: ومتى تخرج وما فائدتها، هذه القوة الداخلية.

الجان: قوة إيمان.

(صالح): إيمان بالله مش بالشيطان.

(وأشار إلى المعبد):

- هذا ليس معبدا، إنه دار انتظار للموت، لكن ببطاقة عبودية.

(كاليسا) تدخل الحوار بقسوة تقدمت (كاليسا)، وصوتها كالسهم: أنتم تبيعون الوهم، الشيطان ما أنقذ ملككم، ولا حماكم من الشيخوخة، ولا حتى من الخوف الذي في عيونكم.

تراجع الجان، وانخفض صوته: وملكهم اختارنا لإيماننا به.

قاطعه (صالح): لأنه لم يكن عنده غيركم، ودائماً يتم اختيار الضعيف الذي يطيع وينفذ دوم أن يناقش.

ساد صمت قاتل، قائد المعبد: نحن نستمد القوة من (عزازيل)، وسجودنا هو ما يزيد القوة، والشيطان يعطينا الخلود

صرخ (صالح): الكذب بلا أقدام، ولو أن الشيطان قادر، لماذا ترك ملكهم يشيخ، فلماذا تركه فريسة للزمن؟ أم أنه يأخذه قويا، وعندما يضعف يرمي به؟.

بدأت الرموز تتشقق، وبداية الانقلاب، خرج جان نحيل من الصفوف، عيناه ممتلئتان غضباً: سألنا هذا السؤال من قبل، ولم نجد إجابة.

صرخ جان آخر: وعدونا بالخلود، وكل يوم نشيخ! وتخور قوانا مثلنا مثل باقي المخلوقات.

تعالت الأصوات.

جان ثالث: لو الشيطان قادرا، لكان أنقذ ملكه!.

تراجع الكبراء خطوة للخلف، الجان الأكبر (مذعوراً): اصمتوا، إنه يزرع الشك.

لكن الشك كان قد انتشر كالنار في الهشيم، رفعت (كاليسا) صوتها: (صالح) لم يأت ليهدمكم، أنتم الذين بنيتم نظاما على كذبة، والكذبة عندما تتعري، تحرق أصحابها.

انفجر الجان الأكبر غاضبًا: كفاية، وجودكم هنا لعنة!.

أشار للحراس: أخرجوهم فوراً، افتحوا لهم طريق العبور حالًا.

اقترب الحراس بوجوه متوترة، لم يكن طرداً، بل هروباً.

قال أحد الكبراء بصوت منخفض: لو تركوه يتكلم أكثر المعبد سيقع.

أُمسك (صالح) و(كاليسا) من ذراعيهما، ودُفعهما للخارج، واغلق الباب بعنف، فانفتح مسار العبور بسرعة غير معتادة، كأن الأرض نفسها تريد التخلص منهما، قالت (كاليسا) هامسة: هيا بسرعة.

ركبا الحصان وانطلقا تجاه البوابة يسابقان الريح، لا يلتفتان للخلف وهما يعرفان أمامهما يوماً كاملاً حتى يصلا بوابة الخروج، فطلبا من الحصان الطيران لينجوا.

(٤٦)

خرج (صالح) و(كاليسا) من مدينة عبدة الشيطان، وأثر الصراع ما زال محفوراً في الجسد والروح، بين جسد منهك وروح جافة مرهقة، خطوات (صالح) كانت ثقيلة، كتفيه منحنيين، وأنفاسه متقطعة، كأن المدينة سحبت منه جزءاً لا يُعوّض، أما (كاليسا) فكانت ساكنة أكثر من اللازم، امتد أمامهما فراغ هائل، مساحة لا نهائية من أرض جرداء، لا شجر، لا ماء، لا حياة، أرض قاحلة كأنها سُلخت من الزمن، لا سماء واضحة، فهي ملبدة، غامقة ولا أفق واضح، فقط اتساع بمدى النظر.

توقف (صالح) أخيراً، وقال بصوت مبحوح: مش قادر أكمل خطوة.

لم ترد (كاليسا)، أغمضت عينيها، وفردت كفها في الهواء وتمتمت، ظهرت دوائر ضوء خافت على الأرض، ترسم نقوش قديمة تتحرك كأنها تتنفس، ثم انفتحت بوابات صغيرة غير مرئية، خرجت منها بساط ناعم يتمدد وحده فوق الأرض لهما فقط، مدت على البساط أوانٍ من معدن تحوى طعام دافئ، رائحته شهية وأكواب ماء صافي يتكثف من الهواء نفسه.

قالت (كاليسا) بهدوء: نحن هنا مؤقتاً، قبل وادي الموت، القوة اللي ضاعت هناك محتاجة تعويض.

جلس (صالح) دون نقاش، جسده استسلم قبل عقله، ناولته (كاليسا) الطعام وقالت: هذا ليس طعاما، هذا سيستعيد ما اتسحب منك.

أكل (صالح) بصمت، وكل لقمة كأنها تسد شرخاً داخله، سألها دون أن ينظر: نحن في أمان؟

ردت بلا تردد: لا، لا يوجد أحد يستطيع الاقتراب طالما كنت فاتحة لدوائر الحماية.

مدت يدها مرة أخرى، فارتفعت طبقة ظل فوق المكان، عازل غير مرئي، لا يُرى ولا يُخترق.

سألها: لِمَ لمْ تفعلي هذا من قبل؟.

- وادى الموت خطير، مبهم، وسوف اتصل بوالدي عن طريق الخاتم الذى أعطاني إياه، أسأله عن الوادي وكيفية التعامل معه.

استلقى (صالح) ووضع سيفه بجانبه، وجسده أخيراً وجد الراحة والنوم.

وقفت (كاليسا)، عينها نحو الفراغ الذي يقود إلى وادي الموت همست: نحن انتهينا الأسوأ، فالقادم أقسى.

وسقط (صالح) في نوم عميق، نوم لا أحلام فيه، لأن الأحلام لا تعيش قرب وادي الموت.

(٤٧)

رفعت (كاليسا) يدها، وضغطت على الخاتم السحري الذي بإصبعها، وتمتمت ببعض الكلمات، نبض الخاتم بحرارة وفجأة، خرج منه صوت عميق كأنه قادم من باطن جبل.

(كاليسا) (بقلق): أبي، وصلنا إلى مشارف وادي الموت، قل لي ماذا ينتظرنا هناك؟.

ساد صمت ثقيل، ثم جاء صوت والدها، مهيباً، فهو يعرف الرعب الذي لم يُقال بعد، فقال الملك (راكادور): وادي الموت ليس أرضاً، بل حكم إعدام، في قلبه تقوم قلعة الموت، قلعة منيعة لم تسقط منذ خُلِق العالم السفلي.

ارتجف الهواء حولهما، واقترب (صالح) خطوة دون أن ينطق.

والد (كاليسا) مكملاً:تحمي القلعة أربع حيات عملاقة من الجان، ليست وحوشاً عادية، بل حُرّاس قُدامى، كل حية منهم تبتلع جيشا وتلفظه رماداً.

(كاليسا): ومن يحكمهم؟.

انخفض الصوت، كأنه يخشى أن يُسمَع اسمه: الملك الشرير (داغور)، مارد لم يُهزم، يتغذى على الخوف، ويطيل عمره بأرواح من يدخل وادي الموت.

شدّ (صالح) قبضته على السيف المسحور، فاهتز نصله بنور خافت.

والد (كاليسا): لن تعبرا إلا بالقتال، وقلادة الملك (ناران)، هي التي تعمى الحيات، ستواجهان الحيّات الأربع بالسيف المسحور والقلادة والحصان الطائر، وبقدرتكِ السحرية يا (كاليسا)، اقتلاهم، وإلا فلن تُفتح القلعة أبداً.

ترددت (كاليسا) لحظة، ثم سألت بصوت خافت: والأولاد؟.

تنهّد (راكادور)، وأعتصره الألم وقال: بداخل القلعة جُبٌّ مظلم، عليه أقفال قديمة، لا تُكسر بالقوة، تُفتح فقط بـالقَسَم السليماني، وبعدها لا ينفك القيد إلا بـتعويذة النور القاطع.

ساد صمت طويل، ثم قال بصوت حاسم: احذري يا ابنتي (داغور) لا يقاتل بالسلاح فقط، بل بالإغواء، وكسر الإرادة، إن ترددتِ خسرتما، وإن خفتِ متّما.

(صالح): وإن وفقنا الله، ماذا عن الخروج، هل نعود كل هذا الطريق؟.

الملك: لا، القلعة بها باب أسفل الأولاد، مفتاحه أن تسكب دم الحية الكبيرة على القفل المرسوم على الحائط،، وستجدان أنكما فوق الأرض، وفى مكان خطف الأولاد من دارهما.

ثم انغلق الشقّ، وخمد نور الخاتم.

نظرت (كاليسا) إلى (صالح)، وعيناها تشتعلان بعزمٍ ونار، وقالت: لا رجوع.

ابتسم (صالح) ابتسامة قصيرة، ورفع السيف: سنخلص الأولاد، وينصرنا الله على (داغور).

ركبا الحصان، وانطلقا يسابقان الريح، وفي الأفق، ارتفعت قلعة الموت، تعلن ببنائها الضخم ولونه الأسود أنها لا تعرف الرحمة.

(٤٨)

وقف (صالح) و(كاليسا) أمام القلعة، أسوارها سوداء كأنها نُحتت من ليلٍ متجمد، وبوابتها الحديدية العملاقة موصدة، تتدلى عليها سلاسل سميكة محفور فيها طلاسم قديمة تنبض بنورٍ خافت.

رفعت (كاليسا) ذراعها، وتجمّع بين كفّيها حزمٌ من الأشعة البنفسجية، انطلقت كالسهام واستقرت على قلب الباب، ارتجّت القلعة، رجفة خفيفة، وصاحت بصوتٍ جهوري اخترق الصخر: افتحوا الأبواب، نحن طلاب عبور، ولسنا أعداء.

ساد صمت ثقيل، ثم دوّى صرير المعدن، ومن شقوق البوابة خرج أربعة حراس، أجسادهم طويلة، مدججون بدروع سوداء، عيونهم متوهجة بلونٍ أخضر سام، تقدم قائدهم خطوة، وقال بسخرية: أي عبور تطلبا، هذه القلعة آخر شيء في هذا الوادي وأخر الطريق، ومن يصل إليها لا يعود.

قال (صالح) بحدّة، محاولًا كبح غضبه: نحن نبحث عن أولادنا خطفوا ظلمًا، أين هم؟

ضحك أحد الحراس ضحكة جافة، وقال: الأولاد؟، لم يعودوا أولاد أحد.

اقترب الحارس أكثر، وصوته صار أثقل: هم الآن ملك مولانا الملك القاهر (داغور) بن (أزراك).

تشنّج وجه (صالح): وبأي حق؟

رد الحارس بلا مبالاة: دُفع ثمنهم ل(هيثمور) و(سِلْهوب) قبضوا وسلموا.

ساد صمت قاتل، قال (صالح): لو أردنا الوصول إليهم؟

ابتسم الحارس ابتسامة ثقة، وأشار إلى الأرض أمام البوابة: تصلون إليهم على جثثنا.

(صالح): معنا هدية للملك (داغور) تعيد له شبابه.

رد الحارس في سخرية: الزئبق الأحمر "وضحك ضحكة عالية" سنقتلكم ونأخذه وهذا أخر يوم لك يا ابنة (راكادور).

في تلك اللحظة، تغيّر الهواء، برد فجأة، وانبعث فحيح منخفض كأنه خارج من بطن الوادي نفسه، بدأت أجساد الحراس تهتز،

تشققت الدروع، وانسحبت العظام لتتمدد، تكسرت الهيئة الجسدية للجان، وانهارت الأرض تحتهم، وفي ومضة واحدة، وتحوّل الأربعة إلى حيّات عملاقة، قشورها سوداء داكنة، أعينها متوهجة، ترتفع برؤوسها حتى حافة البوابة، وألسنتها المشقوقة تتلوّى استعداداً للفتك، قبض (صالح) على سيفه، واشتعلت عينا (كاليسا) بالنار وساد صوت الفحيح على المكان.

(٤٩)

فجأة، تحول الحرس الى أربع حيات عملاقة، قطر الواحدة كجذع نخلة وجلودها سوداء لامعة، وأفواهها تقطر سمّاً زعافاً، فملأت رائحة الموت المكان.

صرخت (كاليسا) رعباً: القلادة يا (صالح) واركب الحصان والسيف بيدك، هيا الى القتال.

في خفة علق (صالح) القلادة في عنقه، وتدلت على صدرة، وقفز كفارس مغوار فوق الحصان، وما إن استقر على ظهره حتى اشتعلت حوافر الحصان بنار زرقاء من ارتطامها بصخرة، واندفع في السماء، والحصان يطير ويهبط ويراوغ، بينما السيف في يد (صالح) يوجهه تجاه الحيات، ويرسل أشعة حادة تقطع كالسيوف، والقلادة أرسلت أشعتها إلى الحية الأولى التي في مواجهته، فقفزت الحية، وصرخت من أشعة القلادة التي أعمتها وافقدتها بصرها، وفغرت فمها، وخرج منه لسان مشقوق، وأطلقت نفثاً ساماً، حرق الأرض حيث سقط.

قالت (كاليسا) بصوت مرتفع: الحية صرخت لأنها أصابها العمى من القلادة، أضرب عنقها بسرعة، هي لا ترى، لا تنشغل بي، أنا سأقاتلهم، كما قاتلت حية التابوت حامية الزئبق.

وفى خفة شد لجام الحصان، وكأنه يسمع ويعرف حواره مع (كاليسا)، اتجه إلى الحية، وضربها ضربة واحدة اطار رأسها وهى تصرخ، وقفزت (كاليسا) في الهواء، ومن كفيها أطلقت أشعة تحرق اللحم وتكشف العظم، كانت تطير في كل اتجاه، وكأنها طائرة حربية وهى تطلق أشعتها الحارقة، اصابت الأشعة الحية الثانية، فانفجر نصفها العلوي وتدلت أحشاءها وهي تصرخ، صرخة ليست لحيوان، بل لشيطان يُذبح.

هاجمت الحية الثالثة الحصان، وقبل أن تغرس أسنانها في جناحه، وجه (صالح) القلادة لها ففقدت بصرها وطريقها الى الحصان، وصرخت صرخة من فقد بصرها، وأيقنت أن رأسها ستلحق بالحية الأولى، وبضربة من سيفه المسحور البتار أطاح برأس الحية الثالثة.

صاحت (كاليسا): الثعبان الكبير يا (صالح)، دمه هو المطلوب لإنقاذ الأولاد وفتح الابواب، وعليك بالقسم السليماني، فالثعبان

الكبير هو الشيطان الكبير، هو الملك (داغور) نفسه، والقسم السليماني سيقيده حتى لا يهرب، فوجه له القلادة بسرعة قبل أن يهرب.

رفع (صالح) السيف، وخرج صوته قويا عاليا كأنه صوت رعد بالقسم: "أقسمت عليك يا (داغور)، أيها الملك المغرور، بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم الرحمن الرحيم، رب جبرائيل وميكائيل، آه آه آه أهيا شراهيا أهيا هاهيا نماهيا أدوناي أصباؤت آل شداي شلعجص شليقوش طمطكش ططكليوش مهلوشخ بهمش هميوش يشهيث شناهش مرططكيوش نافهلم غيوتا نافلا ثاوه ثاوث، ما أعظم هذا الكلام، ما أعظم سلطان الله، واحترق من عصى أسماء الله".

"أُقسم عليكم بالعهد السليماني، وبالاسم الذي تُخلع له التيجان، أن تفتحوا الأبواب، فنحن نريد أولادنا فقط، وإلا الموت لك".

ووجه القلادة تجاهه، صرخ الثعبان وخارت قواه، وعالجه (صالح) بضربة سيف واحدة فصلت رأسه.

صرخت (كاليسا): (صالح)، دمها، هو الذي سيفك قفل الأولاد.

ارتفع الحصان، ثم هبط عليها وغرس (صالح) سيفه في جسم الثعبان أي في (داغور)، وانفجرت شراييـنه، وسال دم أسود كثيف، تشربه الأرض بسرعة غريبة، كأنها تعرف سر هذا الدم، قفزت (كاليسا)، وأخرجت قارورة كبيرة، وملأتها من دم (داغور) الثعبان الكبير، ولطخت كفيها منه أيضا وهي تهلل: الدم ده، دم (داغور)، أثناء تحوله لغير طبيعته، وهذا سر الخلاص.

سادت رائحة الدم في الهواء، قالت (كاليسا) وهي تنظر للقارورة: الآن نستطيع نفك الأقفال.

(٥٠)

سكنت القلعة بموت الحيّات، دخل (صالح) و(كاليسا) إليها، المكان بالداخل كان أبرد من الخارج، يلفه صمت مريب، كأن القلعة تحبس أنفاسها، الهواء ثقيلاً خانقًا، تتراقص فيه رائحة الدم الممزوجة برائحة السنين، المشاعل المعلقة على الجدران كانت تخبو وتشتعل من تلقاء نفسها، وكل خطوة كان يتبعها صدى لا يردّد صوت الخطوات، بل يهمس بهمهمات مخيفة.

سارا في الممرات في ترقب، كل غرفة يفتحانها بحذر بحثا عن الأولاد، توقفت (كاليسا) فجأة، وإذا ببابٍ حديدي غارق في أقفال متراكبة متتالية، لم تكن الأقفال جامدة، بل كانت تتحرك ببطء، كأنها كائنات حيّة تزحف فوق الحديد.

قالت بصوت مرتجف: هذه الحجرة لم تُنشأ للحبس، بل للإخفاء، ومن يدخلها، لا يخرج منها، وإن خرج لا يخرج كما دخلها.

ما أن وضعت (كاليسا) يدها الملطخة بدم الثعبان (داغور) على الباب، حتى أطلق صرخة مدوية حادة، اهتزت لها القلعة من قوتها وكأن الاقفال أرواح جان أعدمت، وتفككت الأقفال واحداً تلو الآخر، وكل قفل يسقط كان يخلف وراءه ظلاً قاتماً على

الباب، انفتح الباب، وفي الداخل، كان الطفلان ممدّدين على أرض حجرية باردة، أنفاسهما ضعيفة جداً، اقترب (صالح) منهما، الطفلان نائمان، بل مغيبان وكأنهما في عالم أخر، تراجع مذعورًا.

همست (كاليسا): لا تلمسهما أنهما مسحوران ولمسهما يضرهما.

فتحت خاتمها، واستدعت والدها، جاء الصوت عميقًا، قوياً: لا يفك هذا السحر إلا القَسَم السليماني، وامسحي وجوههما بدم الحيّة، فدمها يفك السحر لأنه دم (داغور)، ويعودان كما كانا.

قرأ (صالح) القسم السليماني، ومسحت (كاليسا) وجهي الطفلين بدم الحيّة، كان الدم ساخنًا، نابضًا، كأنه لم يفارق الحياة بعد،

فجأة، فتح الطفلان أعينهما، واذا عيناهما كلها سوداء تمامًا، بلا بياض، حاول (صالح) أن يصرخ، فلم يخرج من حلقه صوت، وكأن قوة خفية قبضت على لسانه، فأوقفت (كاليسا) الطفلين بصعوبة، وارتعاشها أشد من ارتعاشهما، وتمتمت بهمهمات مبهمة، فعاد الأطفال لطبيعتهما، وصرخا فرحا ب(صالح)

وعانقاه واجهشا بالبكاء، وسألاه: أين نحن وما الذي جاء بنا إلى هنا؟.

(صالح): الحمد لله كل شيء انتهى.

حركتهما (كاليسا) من مكانهما، ليظهر تحت أقدامهما نقش عظيم على الأرض، قفلٌ مرسوم بالدم والنار، ينبض كقلب حي، سكبت (كاليسا) دم الحيّة على القفل، اهتزت الأرض، وانبعثت رائحة عفن عميق، ودوت صرخة قوية كالرعد، وانشق الحائط، وفتح ممر مظلم في نهايته نور ضعيف يظهر عن بعد، وقبل أن يخطوا في الممر، سمع (صالح) صوتًا خلفهم يقول: لن نتركك يا (صالح) ما حيينا.

ساروا في الممر بحذر، ثم حلّ ظلام دامس، وأحس (صالح) أنه يطير، وفتح (صالح) عينيه، ليجد نفسة فوق الأرض، إنها حجرته، الجدران، النافذة، السرير، لكن هناك اختلافا كبيرا، تغير شبه جزري، والطفلين واقفين في صمت، وكأن المكان جديد عليهما أيضا، وبجانبه (كاليسا).

(٥١)

أخيراً عاد (صالح) إلى سطح الأرض، إلى الدنيا التي تركها، الغرفة كما هي، نفس الجدران، نفس الشباك المطل على الترعة وجلسته التي عشقها وافتقدها بالجميزة والتوتة ونسيم العصاري، نفس السرير نفس الدولاب، كل شيء كما هو، لكن هناك تغير، شيء ما مختلف، ما هو؟ لا يدرى، نظر من الشباك إلى الترعة كل شيء كما هو، التوتة والجميزة، جلسته التي يعشقها وتعيش بداخله، فقال لنفسه: وما تراه قد يتغير، الأمر كله بضعة أشهر، ثم من الذي سيغير، نظر للأطفال بجانبه، و(كاليسا) صامتة، عينيها تراقبه بدقة وكل حركة يأتي بها، مدّ (صالح) يده للمفرش لونه أغمق، ناعم أكتر، ساعة الحائط تعمل لكنها تغيرت أصبحت بالأرقام الإنجليزية، وليست بالعقارب، وبلا صوت، عقله توقف.

سأل: ما هذه، أتكون هذه ساعة؟ هناك شيء متغير.

وفجأة؛ انفتح باب الغرفة ودخلت امرأة في أوائل عقدها الثالث، على أثر صوت الجلبة التي حدثت لدخولهم الغرفة، ملامحها ضربت قلبه ضربة قوية، إنها نفس العيون نفس استدارة

الوجه، نفس الشامة الصغيرة تحت العين اليسرى، نظر (صالح) نظرة ملهوف غير مصدق: زينب زوجتي!؟ كيف؟!!.

ما إن رأتهم المرأة حتى تجمدت مكانها، وعينيها تحجرت، وصرخت صرخة مدوية: أبى؟! معقول إنني أحلم.

نظر (صالح) لها وقد أدهشه ما قالته!! إنها تقول أبى، ولا يوجد غيره، من تكون إذاً، هل فيلم العجائب لم ينتهي بعد؟، لقد تركوا عالم الجان فما هذا الهوس؟.

اقتربت (كاليسا) منه بسرعة، صوتها كان حاسما وموجوعا في نفس الوقت: نعم هذه زينب ابنتك، ليست زوجتك.

صعقه كلام (كاليسا)، نظر لها فاغراً فاه، لفت الدنيا به، خانته قدماه، جلس على حافة السرير بهدوء: ابنتي كيف؟! كيف يكون هذا؟!.

(كاليسا): غيابك عن عالمك كان لسنة واحدة عندنا في عالمنا، لكن هذه السنة تقدر بثلاثين سنة في عالمكم البشري.

رفع عينه إليها ببطء، وكأن مطرقة هوت على رأسه، كأنه يعد السنين على ملامحها، غير مصدق، وكأن كلام (كاليسا) نوبة هلوسة.

- أنتِ تهذي يا حبيبتي، أهذه ابنتي التي عمرها سنتين، وثلاثين سنة مروا عليها كيف، ولماذا أنا لم اتغير؟، فالمفترض أن يكون عمري سبعين سنه الأن.

وضحك في هستيريا.

(كاليسا) (مكمّلة): إنت ما زالت في الأربعين، لو لم تأتى عالمنا كنت ستصبح الآن في السبعين، السنة عندنا تساوي عندكم ثلاثين سنه، لذلك أعمارنا بالخمسة آلأف سة بحسابكم.

لحظات صمت مرت عليه، يفكر فيما سمع من (كاليسا)، وفحص الغرفة كأنه يبحث عن روحه، الغرفة كما هي.

ردت زينب: نحن قمنا بتجديد البيت، لكن تركنا غرفتك كما هي لتذكرنا بك، حتى سقف الحجرة لم نهدمه، وبنينا سقفا فوق السقف وحوائط حول الحوائط، غرفة حول الغرفة.

فسأل زينب: أين العمدة؟، أخبري خالك أنني والأولاد قد عدنا.

انكسرت نظرة زينب، وخفضت رأسها، ولم ترد، وتقدمت (كاليسا) منه وهي من تكلمت: مات منذ سنة.

نزلت الكلمة عليه كالصاعقة، صديق العمر، وتوأم روحه مات، أخو زينب راح، صرخ بصوت مرتفع زلزل البيت، وسقط أرضا، نزلت زينب في لهفة إليه تقبله، وتمسح على رأسه، وهو يبكى ويقول بصوت ممزوج بالدموع:

- ما فائدة الرحلة، وأن كانت الرحلة أكلت الزمن، وأكلت أغلى الناس، لماذا سافرت؟، لقد قتلني (هيثمور) و(سلهوب) بخطف الأولاد، وقتلوني بسرقة عمرى وفقدان توأمي.

أغمّض عينيه، نفس طويل خرج من صدره، كأنه يودّع عمر كامل.

(صالح) بهمس: أنا رجعت حقا! لكن دنيتي سافرت، هي الغير موجودة، والغرفة، رغم إنها نفس الغرفة، صارت قبرا لثلاثين سنة ضاعت، وغرفة أخرى تحتويها.

ظلّ (صالح) جالسًا، رأسه منكّس، وكأن الأعوام التي لم يعشها سقطت دفعةً واحدة فوق رأسه، كانت الغرفة كما تركها، لكن

الأرواح التي سكنتْها تغيّرت، والوجوه التي كانت تملأها غابت إلى الأبد، اقتربت (كاليسا) منه ببطء، وصوتها خرج هادئًا، كأنه يشرح قانوناً كونياً لا يرحم: يا (صالح) أنتم معشرَ البشر، حين يغيب أحدكم في باطن الأرض أو في العوالم الخفيّة، تقولون غاب شهرا أو شهرين، وأنتم لا تعلمون أنه ما غاب إلا يوما أو أثنين عندنا، واعلم أن زينب والأولاد لا يروننني، فنحن فوق الأرض الأن ولن يراني أحد سواك.

رفع (صالح) عينيه إليها، وفيهما سؤال ثقيل، تابعت (كاليسا): الزمن لا يُقاس بعدد الأيام، بل بما يمرّ عليه من نور، وتحت الأرض لا شمس، لا صباح ولا مساء، العام هناك لا يشيخ، ولا يترك أثرًا في الجسد.

وأشارت بيدها إلى وجهه، ثم إلى جسده: لهذا لم تخسر من عمرك شيئاً، جسدك بقي كما هو.

خفض (صالح) رأسه، وكأن كلماتها تثبّت الحقيقة داخله، قال بصوت متهدّج: يعني أنني لم أسافر لسنة، أنا تركت عمري كله خلفي.

اقتربت زينب أكثر، ودموعها تسقط بلا صوت، بينما أكملت (كاليسا): أنت لم تُعاقَب يا (صالح)، لكنك دفعت ثمن المعرفة، عدتَ كما خرجتَ، ووجدتَ سكان الدنيا قد شاخوا دونك.

صمت ثقيل ملأ الغرفة، همس (صالح)، وكأنه يكلّم الزمن نفسه: الذي ضاع ليس السنين، الذي ضاع هو الناس.

لم تجبه (كاليسا)، فبعض الحقائق لا يُردّ عليها.

تقدمت زينب وألقت بنفسها في حضن والدها الذى أصبح يكبرها بعشر سنوات فقط، فقالت والدموع تغلبها وسط ابتسامة جميلة: تعرف أنك الآن في سن زوجي أحمد.

ثم أقبلت على الأولاد واحتضنتهم، وراحت تقبلهم وهى ضاحكة، كنتم أكبر منى بخمس سنوات، الآن أنا أكبر منكم بخمس وعشرين سنة، صرت أما لكما.

ثم ضحكت ضحكات عالية.

(صالح): هل تزوجتِ؟ ومن أحمد هذا؟

- أحمد ابن خالي.

- نعم التوأم، أين هما؟

- أرسلت لهما ابنى عمر، هما في مصنعنا.

- ابنك عمر، ومصنعكم كيف؟!.

- هذه قصة طويلة، بالتأكيد انت جائع، سأحدثك وأنت تأكل.

(صالح): انا سأذهب نحو الجميزة، القعدة بجوارها أوحشتنى - ثم ضاحكا - ثلاثين سنة - وهاتِ لي الشاي بسرعة هناك.

زينب: هذه القعدة كان خالي يبيت فيها حبا لك، وأنا كل يوم أنظفها بنفسي ليس الخدم.

- خدم؟ أعندكم خدم أيضا؟.

- سأحكى لك الحكاية مع الشاي والقهوة.

(٥٢)

خرج (صالح) من الغرفة بخطوات مترددة، توقّف فجأة، ما رآه أمامه لم يكن بيته الذي يعرفه، الغرفة فقط هي الشيء الوحيد الذي ظل كما هو، كأنها قطعة من زمن قديم، أبقوا عليه ليذكرهم به، أما في الخارج، فكان شيئًا أقرب إلى القصر، بهو واسع، سقفه مرتفع، به نقوش كثيرة وتتدلى منه نجف كريستال، والكهرباء دخلت البيت، وسلالم عريضة تتفرع في تناظر مهيب، تؤدي إلى أدوار متطابقة، أربعة أدوار كاملة، شيء يدل على الثراء، تقدّم بخطوات بطيئة، وخرج إلى الخارج، فوجد بوابة ضخمة من الحديد الكريستال المشغول بأشكال جميلة، إنها بوابة قصر، البيت اصبح قصر، وتحوّل إلى تحفة معمارية لا تشبه أي شيء كان من قبل، جلس بجوار الصفصافة، رفع رأسه ونظر إلى المبنى مرة أخرى وابتسم، لم يكن بيتًا، إنه قصرًا بمعنى الكلمة، تملّكته الدهشة، وقبل أن ينطق، ابتسمت (كاليسا) وقالت بهدوء الواثقة: كل هذا من التمائم.

نظر لها (صالح) مذهولًا، فأكملت: التمائم التي وجدناها في المقبرة ونحن نجلب الزئبق، أتذكر عندما قلت لك لا تستهن بها، فغدا تباع التميمة الواحدة بقيمة مئة فدان؟.

ونظرت إلى القصر بفخر: التمائم تشتري الكثير يا (صالح).

توقف قلبه لحظة: وماذا اشتروا غيرها؟

ابتسمت ابتسامة قصيرة وقالت: مئة فدان، أصبح عند ابنتك مئة فدان، ومصنع نسيج كبير.

ظل (صالح) صامتًا، ينظر حوله، بين قصرٍ لم يحلم به، وأرضٍ لم يكن يملكها، وحقيقة بدأت تتكشف فسألها في عتاب: أكنتِ تعرفين كل هذه الأحداث؟، وكذلك بموت ابراهيم صديق العمر، وفرق السنين الكارثي، ولم تخبريننى؟.

- لو قلت لك يا حبيبي ما كنت فعلت شيئا، وكنت عدت بدون الأولاد، وحينما ذهبنا إلى العالم السفلي كنا حيث اللا عودة، نتقدم فقط، في اتجاه واحد، حتى نصل إلى نقطة النهاية.

اقتربت منه: ما حدث قد حدث، وأنت لم تخسر يوما من حياتك، فعشها وتمتع بأولادك وأحفادك.

- أحفادي؟

- نعم لك حفيدين لزينب، ولد وبنت.

أقبل عليه التوأم، أحمد ومحمد، وارتموا جميعًا في الأحضان، فأحمد زوج ابنته، أما محمد، فقد صار عمدة البلدة، ساد المكان دفء غامر، وامتلأت العيون بفرحٍ ممزوج بالدهشة، كأن الغياب الطويل انكسر دفعة واحدة،

شدّ محمد على (صالح) وهو يقول بصوتٍ مرتعش: أبي انتظرك كثيرا يا عمى، كان يبكيك، وينادي عليك في الليالي المظلمة: ارجع يا (صالح)، ارجع يا أخي.

لم يحتمل (صالح)، فانفجرت دموعه، وبكى طويلًا، بكاء رجل حمل الذنب والحنين معًا.

جلسوا جميعًا، التوأم، و(صالح)، وزينب، في تشابكٍ عاطفي صامت، قلوب متشابكة، مفتوحة على وجع السنين، وحكوا له ما قصته (كاليسا) عليه، وقال محمد العمدة: والدى ابراهيم حبيبك، رفض أن يكتب الأرض والمصنع باسم زينب، وكتبها باسمك يا عمى وقال (صالح) راجع بالأولاد.

ابتسم (صالح) بسمة تملأها دموع السعادة بما سمع، فهذا يحفظ حق ابراهيم ابنه العائد معه، ثم هل عليهم الخفيران محيسن وشعلان، وقد أصبحا كهلين، غزا الشيب رأسيهما، وانحنت

ظهروهما، فقد كانا قاربا على الخمسين يوم رحيله، تعانقوا طويلًا، دموع رجال أثقلهم العمر، وكان اللقاء جامحاً بالعاطفة وموجعًا، كأن الزمن اعتذر متأخرًا، فأبقى له بعض الأصدقاء وكذلك كان اللقاء بين الأولاد وأمهم، عناقٌ لا يحتاج كلمات، يكفيه أن القلوب عادت بعد غياب، فقد ذهب الأولاد إلى بيت العمدة، الذي تحوّل هو الآخر إلى قصر، هناك، التقيا بأمهما، امرأة قاربت الستين، وقد كانت ساعة الفراق في الثلاثين أنهكها الانتظار ولم يطفئ قلبها، ولم يعرفها الاولاد، فأمهما كانت صغيرة، توقفت أمامهما لحظة، لم تصدق عينيها ثم احتضنت الأولاد بقوة، كأنها تعانق عمرًا ضائعًا.

حينما رأت اندهاشهما منها قالت: إنها السنين والتي لم تأتى عليكما ورغم أنى لا أفهم السبب إلا إنني سعيدة لأنى حرمت من طفولتكما، وسأعيشها معكما.

ونظرت لإبراهيم، فقد صارت له أمًا بعد وفاة زينب أمه، نظرت إليه بعينين دامعتين، وقالت بصوت خافت: يعلم الله أنى افتقدتك مثل ابنى (صالح).

(٥٣)

أقبلت القرية كلها على (صالح)، في مشهدٍ لم تعرفه من قبل، ثلاثون عامًا من الغياب، ثم يعود فجأة، وكأن الزمن لم يجرؤ أن يلمسه، جاء الأصدقاء والمعارف والأقارب وكل من يعرفهم، داس عليهم الزمن وتمكن منهم الشيب، جلس بجوار الجميزة والتوتة مجلسه الذى عشقه وافتقده وجاءوا يتزاحمون عليه، يُسلِّمون ويُقبّلون رأسه ويديه، وينظرون إليه بدهشة ممزوجة بالرهبة.

جاء سالم الشايب، الذي كان يومًا قطب أقطاب القرية والناحية كلها، وقد أثقله العمر وانحنى ظهره، تقدّم بخطواتٍ بطيئة، والناس تفسح له الطريق، فلما وقف أمام (صالح) بكى، وبكى معه من حوله، وقال له: أنت هكذا مثل العزير، إلا أنك لم تمت، ولكنك في سن ابنتك، أنت دائما قطب كبير يا شيخنا ومعجزتنا.

أما الضريح الذي يحميه ضريح محروس الضبع، فبقي كما هو، لم يتغير، والمولد يُقام كل عام، والناس في غيّهم القديم، والوفود تأتي من كل صوب، تحمل النذور وتطلب البركة، لكن هذه المرة لم يكن الضريح المقصود فقد جاءوا ل(صالح)، أصبح

(صالح) وجهه الناس، فرأت (صالح) وعادت بها الذاكرة؛ رجل اختفى ثلاثين عامًا، ثم رجع بالأطفال من بين أحضان الجان، دون أن ينال منه الزمن، شابًا كما كان، والأطفال كما تركهم، كأن السنين مرت بجوارهم ولم تمر عليهم.

هنا بدأ الهمس ثم تحول الهمس إلى يقين، قالوا إن (صالح) ليس رجلًا عاديًا، وإن ما حدث له كرامة لا تكون إلا للأنبياء والأولياء، كما حدث للعزير، أرادوه قطبًا، بل قطب الأقطاب، لا للقرية وحدها، بل للمحافظة كلها، التفوا حوله، يرفعونه حيث لم يطلب، ويضعونه في مقام لم يصعَ إليه، بينما كان هو وحده يدرك أن ما عاد به من العالم الآخر أثقل من أي لقب، وأخطر من أي ضريح.

(٥٤)

جلس (صالح) في غرفته، الغرفة التي لم تتغير، وتركوها على حالها، الجدران كما هي، السرير في موضعه، حتى الشق الصغير في الحائط ما زال كما تركه منذ ثلاثين عامًا، وإن كان أغلق من الخارج بالحائط الجديد.

كانت (كاليسا) واقفة عند باب الغرفة، تنظر إلى (صالح) وهو يتأمل الجدران التي بقيت تحمل أثار السنين.

قالت بصوتٍ خافت، لكنه نافذ: العالم لم يعد عالمك يا (صالح)، الذين أحببتهم منهم من مات، ومن لم يمت شاخ، وانكسر ظهره تحت ثقل السنين.

ثم اقتربت خطوة: صديق عمرك وتوأمك إبراهيم رحل، ورحيل ابراهيم بالنسبة لك هو الوحدة والتيه، والناس التي تعرفك صارت ذكرى، حتى مريدوك، منهم من مات والباقي شاخ ولا يقوى على زيارتك بالجميزة، حتى قعده الجميزة شاخت كما شاخ روادها، ولفقدها أحبابها، التوأم ابن الأمس أصبح في مثل عمرك، وابنتك التي تركتها رضيعة قد صارت امرأة تجاوزت الثلاثين.

سكتت قليلًا، ثم قالت: ستبقى هنا وحيدًا، بين جيل لا يعرفك، وأنت بالنسبة لهم عبارة عن قصة خارقة، وجيلك الذى لا يقوى على الوقوف على رجليه فكيف تلتقون!؟.

نظر إليها (صالح) طويلًا، ثم قال بهدوءٍ موجع: أعرف كل هذا.

قالت بنبرة أخيرة، كمن يفتح بابًا أخيرًا للنجاة: تعال معي، في عالمنا لا يسرقنا الزمن، ولا نفقد من نحب، ستعيش أعمارًا طويلة، ولن يتركك أحد.

ابتسم (صالح) ابتسامة حزينة، وقال: وهذا هو خوفي يا (كاليسا)، لو ذهبت معك، سأفقد ثلاثين سنة أخرى وربما ستين، وسأتحول شيئًا فشيئًا إلى شخص أخر.

نظر حوله، ثم أكمل: سأعيش أعماركم الطويلة، وأقف أتفرج على البشر من بعيد، لا أعرفهم، ولا أعرف نفسي.

خفضت (كاليسا) رأسها.

قال: لا أريد الخلود، لا اريد أن أخلد وحدى، إن كان ثمنه أن أفقدهم واحدًا واحدًا، لا أريد أن أعود بعد سنين فأجد أولادي قد ماتوا، وأحفادي شاخوا.

دخلت ابنته الغرفة، وقالت له بابتسامة دامعة: إحنا ما غيرناش الأوضة يا أبي، زى مانت شايف على حالتها من يوم ما سبتها.

تعجب: لماذا؟

قالت: عمي إبراهيم، كان يقول لنا دايمًا (صالح) راجع، وسيعود إلى غرفته التي انطلق منها، فتركناها كما هي، لتظل تذكرنا بك وتنتظرك، وكان يأتي ويجلس كثيراً هنا ويبات أيضا ويقول اشم فيها رائحة (صالح).

اغرورقت عينا (صالح) بالدموع، وقال ل(كاليسا): عندنا مثل يقول "جنه بلا ناس لا تنداس" صعب تكرار ما حدث.

(٥٥)

ذهب إلى قبر إبراهيم، جلس بجواره، ووضع يده على باب القبر، وقال: لقد اشتقت إليك يا صاحبي كثيراً، وحشتنى جدا، كنت احلم بيوم لقاك حين عودتي كفارس منتصر ومعي الأولاد، وامسح دمعة الحزن على الأولاد من قلبك، وها أنا عدت ولكنك لم تنتظرني، استعجلت يا صاحبي، أو أنا تأخرت، لقد رأيت الموت كثيرا، كنت أموت كل ثانية بل وفى كل نفس اتنفسه، أحس إنني سأموت قبل خروجه، وعدت أخيرا وبسرعة، لم أضيع يوما هباء، عدت لأجد نفسى عائداً بعد ثلاثين عام، لقد كنتَ على حق يا صاحبي حينما قلت ربما لا نلتقى، وها أنا رجعت، لكنك ذهبت.

أجهش في البكاء، على صديقة وتوأمة الذى رحل، والزمن الذى أخذ صديقه ولم يمر عليه وإلى الآن لا يعرف كيف حدث هذا.

(٥٦)

عاد إلى البيت، الغرفة كما هي تحمل رائحة وعرق الماضي، وجلس وسط أولاده وأحفاده، ضحكات صغيرة، أيدٍ تتشبث به، وحياة تنبض، وقفت (كاليسا) عند الباب ترقبه وتنظر إليه، قال لها (صالح) بصوتٍ هادئ: ابقَي قريبة منى فأنت زوجتي، ونلتقي هنا، فوق الأرض، حيث أعيش إنسانًا، وأموت إنسانًا.

أومأت (كاليسا)، وقالت: الحب لا يحتاج عالمًا آخر، فالحب عالم لحاله، وأنا احببتك ومعك في اى مكان، وانت لك ان تعيش حياتك كما تحب وأعيشها معك يا حبيبي.

وفي تلك الليلة، نام (صالح) بين أولاده وأحفاده وقد اختار أن يعيش ما تبقى من عمره معهم ومع من تبقى من الرفاق، لا خالدًا في عالم أخر ما فائدة أن تخلد وحيدا، ما فائدة أن يكبر أولادك لكن ليس على يديك، سأعيش العمر السريع القليل معهم محاطًا بالحب.

(٥٧)

ذهب ليرى الأرض التي اشتروها بتمائمه التي أحضرها، نظر إلى الأرض الكبيرة باتساعها بسعادة بالغة، انها مائة فدان، شيء فوق الخيال، وتجول في البيت فاحصاً إياه غرفة غرفة، وأسعده ما قاموا ببنائه، والنظام الذي بنى عليه، وذهب إلى المصنع، وأسعده أن يرى مصنع نسيج كبير، ووقف زوج ابنته وابن العمدة بين المكن كالأسد، وأخوه محمد هو العمدة الحالي الذى اكتفى بالعمودية والأرض، وليس لديه وقت لأى عمل آخر.

أصبح زوار (صالح) الأصدقاء والمسؤولين القدامى الذين يعرفونه هو والعمدة الراحل، والمسؤولين الجدد أيضا ليروا هذه المعجزة، وأراد المأمور الجديد أن يكون (صالح) هو العمدة، فما زال شاباً ولديه أرض مئة فدان، لكنه رفض وقال العمودية لابن العمدة إبراهيم الرفاعي وفي بيته، ولا تخرج من بيته ابداً، وأكتفي بالجلسة التي أدمنها، قعدة الصفصافة، وكانت ابنته زينب تنظفها وترتبها بنفسها وليس الخدم، لمكانتها عند والدها، وكان يجلس بها كل يوم كما كان سابقا من بعد العصاري إلى ما بعد منتصف الليل كعادته، وحوله أحفاده وأولاده، (صالح) وابراهيم فسنهم الآن بأوراق الدولة أربعين عاما، بينما هم ما

زالوا عشر سنوات - وهما من كانا سببا للرحلة، ويأتي إليه مريدين كثر من كل مكان ليروا الرجل الذي ذهب إلى العالم الآخر، وعاد شاباً كما هو بعد ثلاثين عاما، وأصبحت هذه حياته وكانت تجلس معه (كاليسا) في كل هذه الجلسات والزيارات ولا يراها سواه، فالشيء الباقي له من زمنه الجميل هي قعدة الصفصافة والتوتة، وكان يأتي يوميا إليه الخفيران محيسن وشعلان ليصنعا القهوة كما كان حبا فيه وفى الماضي الجميل، وكان يبدأ جلسته مع المريدين، بطلب قراءة الفاتحة على صديق عمره وتوأمه ابراهيم الرفاعي، وكان هو والخفيران تدمع عيونهم أثناء قراءة الفاتحة، فيمسحانها بأناملهم ويتبعانها بابتسامه خفيفة لتخفيف حده الأسى.

(تمت)

صدر للمؤلف

النمرة غلط مسرحية

قلوب عامرة رواية

الغربة شعر

وكالة كوهين مسرحية

بيت اللحيوي (أحفاد برهوت) رواية

مملكة مورستان رواية

بيت اللحيوي ٢ (الجنية الساحرة) رواية

بيت اللحيوي ٣ (رحلة إلى العالم السفلي) رواية

تحت الطبع:

وعدى العمر شعر